الفصل الخامس

النهضة الأوربية

١ – الإسلام فى إسبانيا

لم يطلب الإسلام من الإسبان الذين دخلوا فيه إلا النطق بالشهادتين لقاء إعفائهم من الجزية والضرائب والجبايات ، وترك للنصارى حرية الدين والشريعة والحكم ، ما عدا أيام نفر من الخلفاء خضعوا لسلطان الفقهاء أو الأمراء الذين حملتهم الأغراض على التشبه بهم [١] .

واستعان الفاتحون أول ما استعانوا باليهود فولوهم كبرى المدن وقربوا المتعلمين منهم . فاستوزر عبد الرحمن الناصر ومن بعده الحكم الثانى الطبيب حسداى بن شبروط (٩٤٥ – ٩٧٠) زميل الزهراوى ، والمعاون على نقل كتاب ديوسقوريدس فى العقاقير الطبية ، ثم استوزر الأمير حبوس فى غرناطة الأديب صموئيل بن نجدلة (١٠٢٤) مؤلف كتاب القصص اليهودى ، وصاحب أشهر المكتبات المعدودة [٢] . فاطمأن اليهود بعد اضطهاد القوط إلى سماح الحكام المسلمين ، وأقبلوا على لغتهم : قواعد ومفردات وعروضاً وثقافة ينحون نحوها ، ويوازنون بها لغتهم لتحقيق تطورها التاريخى ، ويفيدون من علم الكلام فى إرساء الدراسات التلمودية ، ويأخذون بفلسفتها فيشتهر منهم : ابن جبيرول (١٠٢١ – ١٠٥٨) الذى تأثر فى قصائده العبرية بالشعر العربى ، وضمن فلسفة ابن مسرة فى كتابه الرئيسى ينبوع الحياة (وقد ترجم إلى اللاتينية ١١٥٠ ، ثم ترجمه مونك بالفرنسية) وإصلاح الأخلاق (نشره متناً وترجمة إنجليزية ستيفن س . ويز نيويورك ١٩٠٥) وموسى بن ميمون (المتوفى ١٢٠٤) الذى احتل المقام الثانى بعد ابن رشد مواطنه ومعاصره ، وصنف بالعربية فى الطب والفلسفة ما خلا كتاب دليل الحائرين ، وقيل دلالة الحائرين (حقق ترجمته جو يستنيانى ، باريس ١٥٢٠ ونشره مونك بحرفه العبرى وترجمة فرنسية ، فى ثلاثة أجزاء ، باريس ١٨٥٦ – ١٨٦٦) وتأثر

---

(١) الفصل الثالث ، فتوح الإسلام .

(٢) ابن الخطيب ، الإحاطة جـ١ ، ورقة ١٣١ .

بفلسفته ألبر الكبير ، وخصمه دونس سكوتوس ، ثم سبينوزا ، وكنت ، ثم أصبحت شروح ابن رشد على أرسطو منذ القرن الثالث عشر أساً لمذاهب اليهود فى التوفيق بين الفلسفة المشائية وبين العقيدة الموسوية [٣] .

ومن العلماء : يوسف بن حسداى واضع الشرح على كتاب أبقراط بعنوان شرح الفصول ، ومن النقلة : يوسف قحى (١١٩٠) مترجم المرشد إلى واجبات القلب للفيلسوف بهية من العربية إلى العبرية ، وإبراهام بن حسداى مترجم كتاب التفاحة المنسوب إلى أرسطو (ثم ترجمه إلى اللاتينية لوزيوس ١٧٠٦) [٤] ، ويهوذا الحريرى (المتوفى ١٢١٨) مترجم كتاب السياسة لأرسطو (وقد نشرت الترجمة فى مجلة الجمعية الآسيوية الملكية بلندن ١٩٠٧) وكتاب آداب الفلاسفة محمد بن على . . . الأنصارى (نشر الترجمة لوفتتال فى كتاب حكم الفلاسفة ، فرانكفورت ١٨٩٦) وكتاب النفس لأرسطو (وكان قد نقله من اليونانية إلى السريانية حنين بن إسحق ومن السريانية إلى العربية ابنه إسحق ، وما زال المخطوط فى تورين تحت رقم ١٥٧) ، فحفظت هذه الترجمات مع مثيلاتها ، فى أوربا ، أصول مصنفات العرب التى بددت معظمها الفتن والانقلابات !

(ب) وتزوج العرب الذين دخلوا الأندلس من غير نساء – النصرانيات : فعرف زوجة موسى بن نصير ، وكانت أرملة الملك رودريك ، بأم عاصم ، وولد عبد الرحمن الناصر لأم نصرانية ، وزوج المعتمد إحدى بناته ألفونسو السادس ملك قشتالة . وتشبه المسلمون بحكامهم حتى غلب على المعروفين منهم باسم مور ومعناها بالفينيقية غربى – الدم الإسبانى . ولطالما اشترك المسلمون والنصارى ، فى الأعياد الإسلامية والمسيحية واستخدموا المبنى الواحد مسجداً وكنيسة . ما عدا أيام الخلفاء الذين خضعوا لسلطان الفقهاء ، فقد كان بعضهم يوجب على النصارى التخلى عن أسمائهم النصرانية على حين يقرهم البعض الآخر على ترك تشبههم بالمسلمين والتسمية بأسمائهم [٥] . ومن وجوه النصارى الذين تسموا بأسماء عربية : ابن العزيز الحامى ، وخالد سلمان ، وصالح بن عمر ، والأسقفان : ربيع بن زيد ، والأصبغ بن عبد الله بن نبيل [٦] .

---

(٣) Munk, Mélanges de Philosophie juive et arabe.

(٤) Cl. Boeumeker, Sitz Münch, Ak. 1920.

(٥) بدر الدين العينى ، تاريخ البدر فى أوصاف أهل العصر .

(٦) Dozy, Hist. des Musulmans en Espagne, t I,p 181.

وقد يسر لهم الخلفاء إحراز المناصب فى السفارات وقصور الخلافة وقيادة الجيوش : فعندما ردت قرطبة على بغداد فى أسفارها إلى الدول الأوربية بعث عبد الرحمن الثانى يحيى بن الغزال إلى ملك النورمان والدانمرك (٨٤٥) ، وتبادل عبد الرحمن الناصر السفارات والقسطنطينية (٩٥٠) ، وأوفد أسقف قرطبة ريسيموندو المشهور عند العرب بربيع بن زيد إلى أوتو إمبراطور ألمانيا ، واحتفى بسفيره الأسقف جرتز (٩٥٣) فقضى فى قرطبة ثلاث سنوات تعلم خلالها العربية ، ورجع منها بالمخطوطات النفيسة . ووفد على بلاط الخليفة سفراء بيزنطية وألمانيا وإيطاليا وفرنسا[٧] .

وفى بلاط الخلافة يقول المقرى : وتقدم الحكم الثانى باستدعاء أردون (ابن ألفونسو) وقد حفته جماعة من نصارى وجوه الذمة يؤنسونه ويبصرونه ، فيهم : وليد بن خيزران قاضى النصارى بقرطبة ، وعبيد الله ابن قاسم مطران طليطلة وغيرهما [٨] . وممن تولى قيادة جيوش المسلمين السيد ، وقد تلقب به دون رودريك الذى قضى أجمل أيامه فى خدمة عرب سرقسطة عندما أقصاه ألفونسو السادس (١٠٨١) ، ثم قاتل المسلمين إلى جانبه .

أما الثقافة العربية فيقول البارو القرطبى فى كتابه الدليل المنير : وأقبل أهل مالقة على مصنفات المسلمين فى الأدب والفقه والفلسفة تثقفاً بثقافتها لا للرد عليها ، وبذلوا أموالاً طائلة فى تأسيس مكتباتها . وينطبق قوله على المستعربين فى الأندلس قاطبة الذين جروا على عادات المسلمين فى نظام الحريم وختن الأولاد وإتقان العربية ونظم القصائد بها واستعمال حروفها لكتابة اللاتينية ، ثم على الخاصة من النصارى وقد آثروا أسماء العرب ولغتهم وثقافتهم ، وفى طليعة هؤلاء رجال الدين فاختلفوا إلى مدارس المسلمين ومجامعهم ومكتباتهم ، ثم قبعوا فى أديارهم ينقحون ذلك التراث ويترجمونه ويفسرونه ويصنفون فيه ويذيعونه بين الرهبان وطلاب العلم ، فينتشر انتشاراً سريعاً بفضل مدارسهم فى أديار : ريبول – حيث تعلم الأب جربر ، وترجم إلى اللاتينية من مخطوطات مكتبتها المصنفات الرياضية والفلكية كالزيج المنصورى – وسان كوجات ، وسان ميليان ، وثيلا نوبا ، وسائر مدارس المستعربين فى قرطبة . ومنذ القرن العاشر حملت الكاتدرائيات العبء الأكبر عن الأديار ، فذاعت شهرة مدارس : أوبيدو ، وليون ، وبيك ، وخيرونا ، وبرشلونه ، وسانتياجو دى كوبو ستيلا . وقامت مثيلات لها فى : باريس ، وشارتر ، وأورليان ، وتور ، ولاؤن ، وريمس ، وفى كبرى

---

(٧) ابن عذارى ، البيان المغرب عن تاريخ المغرب ، جـ٢ ، ص٢٢٩ .

(٨) المقرى ، نفح الطيب ، جـ١ ، ص١٨٠ .

مدن إيطاليا وإنجلترا وبلجيكا وغيرها .

ثم أنشأ الرهبان الفرنسيسكانيون دير عكا (١٢٢١) وعلم العربية فيه الأب روبرك . ومدرسة ميرامار (١٢٧٦) ، فأشرف عليها رايموندو لوليو خلال عشر سنوات ، وتعلم فيها العربية أحد عشر راهباً ، وقد عاون لوليو رايموندو مارتينى الدومينيكى واستأنف نشاطه دى ليرا الفرنسيسكانى فى القرن الرابع عشر. وقرر مجمع طليطلة (١٢٥٠) الانفاق على ثمانية من الرهبان الدومينيكيين ، على رأسهم رايموندومارتينى كانوا قد انقطعوا لدراسة العربية ، وصنف أحدهم أول معجم عربى إسبانى (١٢٣٠) خلا نفر من زملائهم أرسلوا إلى باريس لتعلم اليونانية والعربية والعبرية فيها (١٢٥٥) ، ثم كلفهم مجمع بلنسية (١٢٥٩) تأسيس مدرسة للعربية والعبرية فى قطلونيا (١٢٦١) ، وقد صنف أحدهم غليوم الطرابلسى كتاباً عن الإسلام ، أهداه إلى من أصبح البابا غريغوريوس (١٢٧١ – ١٢٧٦) ، وألف دى مونتى كروسيس كتاباً عن عقائد تركيا والتتر.

وانتشرت مدارس الرهبان العربية فى أشبيلية (١٢٥٠) وبرشلونة (١٢٥٩) وميورقة (١٢٧٦) وبلنسية (١٢٨١) وجانيفا (١٢٩١) وقد تطور بعض مدارس الكاتدرائيات إلى جامعات ونالت على غرارها حقها المعلوم فى مساعدة الباباوات والملوك ، ومن أشهرها :

جامعة بلنسية (١٢٠٨) التى انتقلت إلى صلمنكة (١٢٢٧) ، ومعهد الدراسات الشرقية فى طليطلة (١٢٥٠) وجامعة بالما (١٢٨٠) وجامعة لشبونة (١٢٩٠) وجامعة لريدا (١٣٠٠) وجامعة بلد الوليد (١٣٠٤) .

وكان دون رايموندو الأول رئيس أساقفة طليطلة (١١٢٦ – ١١٥١) قد أنشأ فيها مكتب المترجمين (١١٣٠) فنقل المسلمون واليهود والنصارى إلى اللاتينية أمهات كتب الرياضيات والفلك والطب والكيمياء والطبيعة والتاريخ الطبيعى وما وراء الطبيعة وعلم النفس والمنطق والسياسة ، ومن أشهرها : أورجانون أرسطو بشروح الكندى والفارابى وابن سينا والغزالى ومختصراتهم له . ومؤلفات أقليدس وبطليموس وجالينوس وأبقراط ، بشروح الخوارزمى والبتانى والبطروجى ؛ كما نقلوا الكثير من مصنفات علماء العرب واليهود ومن أشهر المترجمين : جونثالث ، ويوحنا بن داود الإسبانى ، ويوحنا الأشبيلى ، وروبرت أوف تشتستر ، وهرمان الدلماطى ،وأوجودى سانتلا ، وأفلاطون التيفولى ، وساراشل وغيرهم . وبفضل مكتب الترجمة والمدارس والمكتبات ظلت طليطلة طوال قرنين ملتقى طلاب العلم ، من إنجلترا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا يفدون عليها وينهلون من الثقافة العربية فيها ، ثم يرجعون إلى

بلدانهم ، فيذيعونها بين أهلها .

ولم يقف رجال الدين والمثقفون عند الترجمة من العربية ، بل نقلوا إليها ، وكتبوا بها وصنفوا فيها : فنقل من اللاتينية إلى العربية يوحنا رئيس أساقفة أشبيلية التوراة (٧٢٤) والأب فيسنتى ثمانية أجزاء فى قوانين الكنيسة ، وأهداها إلى الأسقف عبد الملك فى أبيات من الشعر العربى الرصين مطلعها :

كتاب لعبد الملك الأسقف الندب جواد نبيل الرفد فى الزمن الجدب

ونقل إسحق فلاسكز إنجيل لوقا (٩٤٦) .

وصنف ربيع بن زيد الأسقف كتاباً فى تفصيل الأزمان ومصالح الأبدان ، وآخر بعنوان الأنواء . ووصف أسقف جرتز رحلته إلى قرطبة فى كتاب نفيس . واستمروا على ذلك حتى بعد أن استعاد ألفونسو السادس طليطلة (١٠٨٥) وغيره غيرها : فألف بدرو ألفونسو (١٠٦٢ – ١١١٠) كتاباً بالعربية عنوانه : تعليم رجال الدين ، ثم ترجمه إلى اللاتينية ، ومنها نقل إلى لغات كثيرة ، وقد طواه على ثلاث وثلاثين قصة شرقية اقتبسها عن حنين بن إسحق ، ومباشر ، وكليلة ودمنة ؛ كما ألف محاورات مع اليهود ورسائل فلكية وخرائط جغرافية حققها فاليكروسا (تربيز ١٩٣٧) وصنف جونثالث – إلى جانب ترجماته فى مكتب طليطلة – عدة كتب من أشهرها : خلود الروح معتمداً على ابن سينا ، وابن جبيرول . وحول فيض العالم ناحياً فيه نحو الفلسفة الإسلامية . وفى فروع الفلسفة متأثراً بالفارابى . وأرخ رودريك كزيمنس رئيس أساقفة طليطلة (١١٧٠ – ١٢٤٧) لإسبانيا من البدء إلى عام ١٢٤٣ (فترجمه الأب ريبيرا دى بريخا إلى القطلونية سنة ١٢٦٦ ، وترجمه دى هينوخوسا أسقف بروجس ١٣١٣ – ١٣٢٧ إلى القشتالية) والتاريخ العربى من النبى إلى الموحدين ، وفيه مختصر عن كتاب الرازى (والكتابان مطبوعان فى فرانكفورت ١٩٠٣) ، وقد ظهر أثر الرازى فى كتاب التاريخ العربى الذى صنفه بدرو دل كورال .

(جـ) وعندما طفق ملوك إسبانيا يستعيدونها من المسلمين لم يعطلوا تراثهم أو يكتفوا بما نقلوه منه ؛ وإنما عمدوا إلى إقامة حكمهم على أساسه والمفاخرة به :

فكان بدرو الأول ملك أراغون لا يحسن من الكتابة إلا العربية . وجرى ألفونسو السادس على غرار أسلافه ، وتسمى بإمبراطور العقيدتين الإسلامية والنصرانية ، وجعل من طليطلة منارة معارف زادت تألقاً أيام ألفونسو السابع باعتصام العلماء بها من تعقب الموحدين .

واحتفظ الفونسو الثامن بالكتابة العربية على نقوده ، وكانت المسكوكات الإسلامية

والفرنسية عملة ممالك النصارى طوال أربعمائة سنة .

وفى عهد ألفونسو العاشر (١٢٥٢ – ١٢٨٤) الملقب بالحكيم بلغت الثقافة الأوج ، فأنشأ معهداً للدراسات العليا فى مرسيه (١٢٦٩) ، واختار له أعلام المسلمين والنصارى واليهود ، وعلى رأسهم أبو بكر الرقوطى ، ثم نقله إلى أشبيلية وألحق به مجمعاً علمياً لمزج الحضارتين الإسلامية والمسيحية فى حضارة إسبانية موحدة ؛ كما حافظ على طابع طليطلة فى مركزها الثقافى العالمى ، وجمع حوله العلماء وعهد إليهم بالترجمة والتصنيف ، وكان يشرف بنفسه على التوجيه والتحرير والتلخيص ، فترجم إلى الإسبانية : الإنجيل ، والقرآن ، والتلمود ، والقبالة ، وسر الأسرار المنحول لأرسطو ، ثم كتاب كليلة ودمنة (١٢٥١) – من ترجمة لاتينية لترجمة عبرية لترجمة فهلوية للترجمة السنسكريتية المزعومة ، ثم ترجم إلى أربعين لغة ، والترجمة الإسبانية نشرها اليمانى (١٩١٥) – وألف ليلة وليلة ، وكتاباً فى التنجيم لعبيد الله محمد الأستيجى ؛ وصنف التاريخ العام باسمه ، وقد ضمنه تاريخ إسبانيا للأسقف رودريك الطليطلى وبعض الأحداث والقصص والأساطير (١٢٦٠ – ١٢٦٨) وكتاب فن الشطرنج (نشره أرنالد شتايجر ، زوريخ ١٩٤١) وديوان التسابيح ، وقد طواه على ٤٥٠ قصيدة نظمها بالقشتالية والجليقة البرتغالية وزينه ب ١٢٢٦ نقشاً (١٢٨٠) واستعان بقوانين القوط والرومان والكنيسة فى وضع مجموعة من الشرائع ما زالت أساً للتشريع الإسبانى ، وأنشأ مكتباً لتصنيف كتب علم الفلك المترجم منها كأسطرلاب مسلمة المجريطى ليوحنا الأشبيلى ، وزيج البتانى لأفلاطون التيفولى (١١٤٠) وغيرها ، وأمر بترجمة ما تبقى من أمهاتها ، فتجمعت لديه مصنفات الزرقانى ولمسلمة المجريطى : غاية الحكيم ، وشروحه على النظام الرياضى لبطليموس التى نقلها رودلف دى بروجس ، ورسائل قسطا بن لوقا ، وعلى بن خلف وغيرهم .

وكان الملك يراجع ما أنجز من ترجماتها وينظمه ويختصره ويصلح من أسلوبه ، ويشرف فى الوقت نفسه على صنع الآلات والأجهزة لعلم الفلك لم تكن معروفة من قبل ، فجمع ذلك العلم فى :

١ – الكتب الأربعة فى نجوم الفلك الثامن .

٢ – الكتب الألفونسية فى أجهزة علم الفلك وأدواته وكتبه (البندقية ١٤٨٣ – ١٤٩٢) .

٣ – كتاب الزيج الألفونسى فى دراسة التقاويم .

وقد نشر هذه المجموعة مانويل ريكواى سينوباس M. R. Y. Sinobas فى خمسة أجزاء (مدريد ١٨٦٣ – ٦٧) ، وشجع دون فادريك أخو ألفونسو العاشر على ترجمة مجموعة السندباد من ألف ليلة وليلة ، فترجمت إلى الإسبانية بعنوان : مكايد النساء وحيلهن (١٢٥٣ ، ثم نشرها بونيلا فى مجموعة المكتبة الأندلسية المجلد الرابع) وترجمها دياجو دى جانيثارا فى القرن الخامس عشر (مجموعة قصة علماء رومة السبعة) وماركوس بيريث (١٥٣٠) وبدرو دى لافيرا (١٥٧٣) .

٢ – من إسبانيا :

ولم يقتصر أثر التراث العربى على العلوم المتقدمة أو يقف عند حدود إسبانيا ، وإنما تجاوزها إلى التغلغل فيما لأوربا من قصص وأساطير ومقامات وشعر وموسيقى وغناء : فغلب على قصص دون خوان مانويل الطابع العربى على الرغم من صياغته فى أسلوب مبتكر ، وأشار الأب بو اليسوعى إلى وجه الشبه بين قصة حى بن يقظان وبين الفصول الأولى من الكريبتيكون لبلتازار . وعندما ترجمها أوكلى إلى الإنجليزية (١٧٠٨) أوحت إلى ديفويه بقصة روبنسون كروزوه . وكان سرفنتس (١٥٤٧ – ١٦١٦) قد قضى ردحاً من الزمن سجيناً فى الجزائر ، فتأثر بها فى قصته دون كيشوت وقال عنها كارادى فو : إنها جديرة بأعظم نوابغ الفلسفة [٩] .

ورد جارنوى معظم الأقاصيص التى بنت عليها فرنسا فنها إلى أصل شرقى [١٠] ، وهناك مجموعة من الحكم والأمثال صنف فيها الإسبان على غرار العرب : فالأقوال الذهبية مقتبس من كتاب الأمثال لابن فاتك المصرى ، وكليلات الفلاسفة وحكمهم وهو أول كتاب نشر فى إنجلترا ، شبيه بمختار الحكم لابن فاتك المذكور . والأمثال الطبية مستقى من حكم الفلاسفة لحنين بن إسحق (وقد ضاع أصله العربى وسلمت ترجمته العبرية فنقلها إلى الألمانية لوفنتال ، فرانكفورت ١٨٩٦) ونصائح الملك سانشو ووثائقه مستخرج عن واسطة السلوك فى سياسة الملوك لأبى حمو موسى بن يوسف ملك تلمسان ، وكليلة ودمنة كانت من مصادر لافونتين كما اعترف هو نفسه .

وفن الموشحة بما فيه من تعدد القوافى والوزن وتضمين الغزل والوصف والتشبيب – ترك فى إسبانيا وأوربا أثراً بالغاً : فنظم خوان رويث نائب أسقف هيثا ديوان الحب الطاهر متأثراً

---

(٩) Carra de Vaux, Les Penseurs de L'Islam, t. IV, p. 64.

(١٠) Jeamoy, Les Origines de la poésie lyrique en France et au Moyen Age, p. 11.

بالمقامات وفلسفة ابن حزم والأفلاطونية الحديثة ، فجاء أنفس ديوان فى الأدب الإسبانى يومئذ . وقد أثبت ريبيرا أى طراجو فى بحثه شعر ابن قزمان – أن الشعر الغنائى الذى عرف فى فرنسا باسم الشعراء الجوالين « التروبادور » وانتقل منها إلى ألمانيا وأطلق عليه مايسترسنجر – الشعراء المنشدين (١١٣٠ – ١١٥٠) نمت جذوره فى تربة إسبانية من الزجل العربى بالأندلس [١١] ، واعترف لانسون بأن الغزوة العربية جاءت الغرب بكثير من علوم الحساب والطب والفلسفة . . . وبشعر كثير الصور غذى الشعراء الجوالين ، وبقصص ترك أثره فى الأمثال والروايات [١٢] . ففى فرنسا تأثر به الكونت دى بواتييه (١١٠١) – الذى اشترك فى الحملة الصليبية الأولى وتغنى بنصرها ، وكان ملحداً فطرده الأسقف من الكنيسة ، ثم التقيا فقال له : اغفر لى وإلا قتلتك . ولما مد الأسقف له عنقه لوى عنه مجيباً : لست أحبك بالقدر الذى يكفى أن أبعثك إلى السماء – ثم عدل فن الموشحة (١٠٧١ – ١١٢٧) .

وظهر أثر بواتييه وعليه الطابع العربى ، فى الشعراء أمثال : الراهب دى مونتودون ، ورينو ، وماجريه ، وماركيرى . وتجاوز بواسناد الزجل فقال : لم تكن ملحمة رولان ، وهى أغان شائعة منذ القرن التاسع جمعت (١١٣٠) واعتبرت أسمى تراث فى الأدب الأوربى يوم ذاك ، إلا صدى لاشتراك الفرنسيين فى الحروب بين المسلمين والنصارى فى أراغون [١٣] ، ثم أثر الشعر القصصى الفرنسى فى الشعر الإسبانى ، فنظمت ملحمة السيد (١١٦٠) ، وفى الشعر الإنجليزى عندما انتقلت مارى الفرنسية إلى إنجلترا فى عهد هنرى الثانى ، فنظمت عدداً من القصص شعراً : كقصة طروادة فى ثلاثين ألف بيت (١١٨٤) ، وقصة الإسكندر فى عشرين ألفاً (١٢٠٠) ، وقصة بروت فى اثنين وثلاثين ألف بيت (١٢٠٥) ، وتبعها شعراء عديدون .

وظهرت الموشحة فى ألمانيا فى نشيد نيبيلخن (١٢٠٠) وفى شعر دردامن وأتباعه ، وفى إنجلترا فى شعر دى مريل ونظرائه ، وفى البرتغال فى شعر ديونيس وأشباهه ، وفى إيطاليا طبعت الموشحة بطابعها موضوعات الشقاء والخصام وأغانى المرافع ولا سيما فى مدائح دى تودى ، ومرقصات دى مديتشى .

ولمع من العرب موسيقيون فى قصور ملوك قشتالة وأراغون حتى إذا ترجم أدلرد أوف باث

---

(١١) بيدال . الشعر العربى والشعر الأوربى (الطبعة الثالثة : بوينس آيرس ١٩٤٦) .

(١٢) Lanson, Histoire de la Litterature française.

(١٣) Boissenade, De nouveau sur la chanson de Roland.

رسالة الخوارزمى فى الرياضيات وفيها قسم عن الموسيقى – عدت أقدم الرسائل التى أدخلت الموسيقى العربية أوربا ، ثم شاعت فى الجنوب الغربى منها منذ القرن الثالث عشر موسيقى شعبية منبثقة من مصادر عربية انبثاق شعر الغزل الغنائى والتاريخى والملحمى .

وقد وضع الفونسو الحكيم ألحان تسابيحه على أساس الموسيقى العربية ، وأصبحت آلات الطرب عربية بكامل أسمائها ، مثل : القيثارة ، والمزمار ، والعود ، والأرغن ، والبوق ، والنفير ، والطبل . وجل أسماء الأمكنة والبقاع والصناعة وأصناف الماعون ومرافق الحياة وبعض المصطلحات العلمية والأدبية والفنية فى اللغتين الإسبانية والبرتغالية عربية صرف [١٤] ، وما زال فيها منها أربعة آلاف كلمة متداولة ، وانتقل إلى اللغات الأوربية من مصطلحاتها فى الطب : كجلاب ، ورب ، وشراب ، وكحل ، وإنبيق ، وفى علم الجبر : الجذر الأصم ، والصفر ، والتقويم ، وفى علم الفلك : العقرب ، والجدى ، والفرقد ، والسمون ، والنظير والسمت .

وعبرت الثقافة العربية – بفضل الرهبان ولا سيما الملتحقين بدير كلونى ، واللاجئين إلى فرنسا – جبال البرانس والألب إلى فرنسا وإيطاليا وإنجلترا وألمانيا وغيرها ، ثم استقرت فى أشهر مراكزها فى فرنسا : وضعت تقاويم فلكية مبنية على أزياج طليطلة بمرسيليا (١١٤٠) وأنجز هرمان الدلماطى ترجمة إصلاح المجسطى فى تولوز (١١٤٣) ، وترجم إبراهيم بن عزرا المعروف بابن ماجد (١٠٩٠ – ١١٦٧) أحد شارحى التوراة ، ومدرس السامية فى لندن (١١٥٨) – رسالتين فى التنجيم لما شاء الله ، وشرح البيرونى على زيج الخوارزمى ، فى أربونه (١١٦٠) وصنف كتابين فى الحساب . وهاجر ابن طبون (المتوفى ١١٩٠) من الأندلس إلى جنوبى فرنسا ، وترجم مصنفات : سعدية جاؤن ، وابن جبيرول ، ويحيى بن لاوى .

وترجم موسى بن طبون ٣٠ كتاباً من العربية إلى العبرية فى مرسيليا (١٢٤٠ – ١٢٨٣) أشهرها : كتاب الأصول لأقليدس ، والقانون الصغير لابن سيناء ، والترياق للرازى ، وثلاثة من مؤلفات ابن ميمون بينها الشرح (١٢٥٧) وشروح ابن رشد الصغرى على أرسطو ، وزاد المسافرين للجزار ، والعمل بالكرة ذات الكرسى لقسطا بن لوقا .

وترجم الطبيب شم طب فى مرسيليا كتاب المنصورى للرازى (١٢٦٤) . وتزعم يعقوب

---

(١٤) Dozy, Glossaire des mots espagnols et portugais derivés de l'arabe (Leyde 1869).

بن طبون حركة الكفاح من أجل ابن ميمون فى مونبلييه ، وترجم عدداً من رسائل الفلك العربية إلى العبرية .

ودرست كتب الطب العربى فى مونبلييه قروناً عديدة ، ومنها كتاب الحكم الذى شرحه أطباؤها : برتوليو البروجى ، وبيرانجه التومباوى ، وجيرال السولى . واشتهر مارتن لدى سن جيل فى أفينيون (١٣٦٢) بترجمته إلى الفرنسية أصول العلوم من اليونانية والسريانية والعربية والعبرية .

فهل كانت إسبانيا المورد الوحيد الذى نهلت منه أوربا الثقافة العربية وأرست نهضتها عليها ؟

٣ – من البرتغال :

منذ استقل العرب بما يطلق عليه اليوم جنوبى البرتغال نشروا فيه ثقافتهم ، ونبغ منهم فى الشعر : ابن عمار ، وابن عبدون ، وابن سارة ، وغيرهم ، وفى اللغة : الأعلم الشنتمرى ، وابن السيد ، وابن السراج . وفى التاريخ : ابن صاحب الصلاة مؤرخ الموحدين ، وابن بسام صاحب الذخيرة . وفى الفلسفة : ابن السيد مصنف كتاب الحدائق ، وابن قسى مؤلف كتاب خلع النعلين – وما زال مخطوطاً – وأبو عمران المرتولى ، والعريانى أستاذا ابن عربى أشهر متصوف فى الإسلام .

وأبدع العرب فى فن العمارة فاشتهر جامع لشبونة بقبابه ، وجامع مرتولا بمحرابه – وما زال قائماً – وتغنى بقصر الشراجيب فى شلب المعتمد ، وابنه المعتد بالله ، ووزيره ابن عمار ، وابن اللبانة ، ومما خاطب به المعتد بالله ابن عمار عنه :

وسلم على قصر الشراجيب عن فتى له أبداً شوق إلى ذلك القصر

وأقام عمر بن الأفطس فى قصره ببابرة قبل أن يتوج على بطليوس . وفى متحف لشبونة زخارف من قصور العرب وجوامعهم الدارسة ، وأحجار أثرية ، وشواهد قبور ، ورقم ، وقطع خزف ، ومجموعة نقود ، كما يضم متحف الركائب الملكية طائفة من العربات الملكية المذهبة على توالى العصور .

أما أثر العرب فى البرتغال فوافر متنوع متسلسل :

ففى اللغة : جمع الأب جان دى صوصه الفرنسيسكانى الألفاظ البرتغالية المشتقة من العربية فى معجم من ١٦٠ صفحة ، وعدد دافيد لوبس أسماء الأماكن العربية فى كتاب من

٤٤١ صفحة . وأوضح ما تكون العربية بياناً فى المفردات التى تبدأ بأل التعريف ، والمصطلحات الدالة على المرافق والمناصب والمهن والحرف : كالمنارة ، والمد ، والتعريفة ، والوزير ، والمتصرف ، والريس ، والبرقوق ، وغيرها . ثم كتب البرتغاليون ، فى المغرب ، البرتغالية بحروف عربية ، وتبادلوا رسائلها والعرب .

وفى الأدب : تأثر البرتغاليون بما كان من أصل هندى كقصص برلعام وكليلة ودمنة ، وقد ترجموهما إلى البرتغالية ، وبألف ليلة وليلة التى طبعوها مراراً . واشتمل قصصهم على العديد من أساطير أهل المغرب الذين ألقاهم السحر فى قاع الآبار والأغوار ، فراحوا يرقبون النجاة على أيدى فرسانهم . وتناولت الأغانى البرتغالية تدله البرتغاليين بنساء العرب ، وأهل المغرب بالأميرات البرتغاليات ، ومن أروعها أسطورة خطف ابن محفوظ ملك المغرب الأميرة برانكا بنت الملك ألفونسو الثالث التى نظمها الشاعر المايدا جاريث فى ملحمة ، وألف منها خوسه دى شربا بينانتل مسرحية بعنوان المنصور بن عفان ، وصاغها الفريد كايل وسيزار فريالى أوبرا ، واستعان الأب خيل برت بمحمد العريف فى ترجمة تاريخ أمراء الأندلس لأحمد الرازى القرطبى المشهور ، ثم نقل الترجمة الأسقف رودريك الطليطلى إلى الإسبانية وضمت من بعد إلى تاريخ إسبانيا العام لألفونسو الحكيم .

وأفاد البرتغاليون من علوم العرب فى : الرياضيات والفلك والخرائط والجغرافيا – وكان أبو الحسن قد وضع الاسطرلاب وخرائط الجزيرة الأيبرية ، فنقلها علماء قطالونيا إلى البرتغال – وبناء السفن فاستدعى الأمير هنرى خبراء العرب بعلم البحار ، واصطنع طرازاً من سفنهم فى اكتشافاته ، وحقق رحلة ماركو بولو على رحلة ابن بطوطة ، واستعان فاسكو دى جاما بابن ماجد لهديه فى مجاهل المحيط الهندى ، فنسب بعض المؤرخين اكتشاف طريق الهند إلى البرتغال والعرب .

وظل لأهل المغرب فى أحيائهم بالبرتغال فقهاء وعلماء يعلّمون أصول الإسلام ويجادلون النصارى فيها ، وقد تضمن الكتاب الإمبراطورى من ذلك الجدل كثيراً فى صحة الأديان ولا سيما أديان موسى وعيسى ومحمد . وأنشأ الملك دينيس (١٢٧٩ – ١٣٢٥) جامعة لشبونة (١٢٩٠) ، وأمر بترجمة الكتب الإسبانية واللاتينية والعربية إلى البرتغالية ، وكلف المهندس محمد العريف تحويل جامع مرتولا إلى كنيسة ، وترميم قصر الأندورال ، فطبعه بالطراز العربى زخارف ونوافذ وكتابات ، وشيد الملك نفسه برج المراقبة فى قصر باجة ، فجعل إحدى قبابه قوطية عربية على غرار قباب الأندلس . وبعد نزول البرتغاليين بسبتة بدا الأثر العربى المغربى على

القصر الملكى فى شنتمرة ، وقصر فرنالدو دوق باجة ، والجناح الشرقى فى القصر الملكى بشنتمرة والقصر الملكى فى يابرة ، وفى برج بيليم ، ثم تأثرت العمارة البرتغالية بالفن العربى من تركيا والعراق ومصر ، فلاح على الجناح الجديد من قصرينا فى شنتمره ، والقاعة العربية بقصر البولسا فى بورتو ، وميدان الثيران فى لشبونة ، ومتحف الركائب الملكية .

٤ – من صقلية وإيطاليا :

وأفادت صقلية وهى المشرفة على مناطق مدنيات ثلاث – الغربية والأفريقية والشرقية – من فنون وآداب وعلوم الفينيقيين والمصريين واليونان والرومان والبيزنطيين والعرب ، وازدهرت الثقافة العربية فيها ، فشاهد ابن حوقل فيها نحو ٣٠٠ مسجد و ٣٠٠ من معلمى المدارس (٩٧٠) ، واشتهر من علمائها : الشيخ أبو القاسم ابن القطاع (المتوفى ٥١٥ هـ) صاحب الأفعال وتصاريفها ، وتاريخ صقلية ، والشافى فى علم القوافى ، والملح البصرية ، وطبقات الشعراء . وابن ظفر (المتوفى ٥٦٨ هـ) مؤلف كتاب الاشتراك اللغوى والاستنباط المعنوى ، وينبوع الحياة فى التفسير ، وأعلام النبوة . وسلوان المطاع (وقد ترجمه ميشيل أمارى ، (فلورنسا ١٨٥١) ومن كتابها : أبو الحسن الكلبى ، وابن مكى ، والرقبانى . ومن شعرائها : عمار بن منصور الكلبى ، وعبد الرحمن بن أبى العباس ، وعيسى بن عبد المنعم ، وعبد الجبار بن حمديس ، (وقد ترجم ديوانه سكيابا ريللى ، رومـة ١٨٩٧) كما كان الحميدى أشهر مؤرخى ميورقة .

وظلت تلك الثقافة مزدهرة حتى بعد أن أجلى النورمان العرب عنها (١٠٥٧ – ١٣٠٨) فغزاها روجه الأول المعروف عند العرب برجار غزوات متواصلة فى جماعة من القرصان ، ولما استولى عليها (١٠٦٠ – ١٠٩١) وجد فيها خمسة شعوب ، لكل منها لغته ومذهبه وشريعته فآثر العرب واعتمد عليهم فى جيشه وفى إدارة دولته ، وضم فلاسفتهم وأطباءهم ومنجميهم إلى بلاطه فى بالرمو وقد جعله شرقياً أكثر منه غربياً ، وأطلق لهم الحرية فى إقامة شعائرهم ، وأضاف شارة محمد إلى شارة المسيح فى ضرب نقوده واضعاً على إحدى صفحتيها : لا إله إلا الله محمد رسول الله . ومن أقدم الوثائق الأوربية المكتوبة على الورق أمر إدارى أصدرته باللغتين اليونانية والعربية زوجة روجه الأول (١١٠٩) .

وخلف روجه الثانى أباه (١١٠١) ثم تلقب بملك الصقليتين (١١٣٠ – ١١٥٤) ، وسار على خطاه ، فارتدى ملابس شيوخ المسلمين ، وكتب على حلة التتويج عبارة بالخط

الكوفى والتاريخ الهجرى (٥٢٨ هـ أى ١١٣٤ م) ، وصك نقوداً تحمل تاريخاً ونقشاً عربيين (١١٣٨) ، وشيد المبانى على الطراز العربى ، وزين سقف كاتدرائية بالرمو بالنقوش الكوفية ، واستقدم النساجين اليونان واليهود من كورنثة وطيبة إلى بالرمو ، وأسكنهم أحد قصورها (١١٤٧) وعاون على تأسيس مدرسة الطب فى سالرنو – وقيل : إن مؤسسها أربعة : لاتينى ويونانى ومسلم ويهودى (١١٥٠) – وقصر مهنة الطب على الذين ترخص لهم الدولة مزاولته ، وترك للعرب واليهود حريتهم الدينية واستقلالهم الثقافى ، فأطلق عليه خصومه الملك الوثنى ، فى حين عاب شاعر على الشعراء أن يحطوا من قدر أنفسهم بمدح الكفار ! وعقد لواء أسطوله لجورجى الأنطاكى ، فمكنه من بعض مدن شمالى أفريقيا ، وحمل على جنوبى إيطاليا بجيوش ومهندسى حصار عربا .

ونزل الشريف الإدريسى (المتوفى ١١٦٦) على الملك ، فألفى العرب قد خلفوا فى صقلية مصانع وقصوراً ومنازل ومساجد وفنادق وحمامات وحوانيت ، وأعجب بروجه فذكره بالملك المعظم رجار المعتز بالله . . ووصف عدله وهمته وتوسعه فى العلوم الرياضية وغيرها . . وإنجازه وهو نائم ما لم ينجزه غيره من الرجال وهم أيقاظ ! فاتهم الفقهاء الإدريسى فى دينه وأهمل مؤرخوهم ذكره ، وكلفه الملك تصنيف كتاب فى صفة الأرض ، فبعث الإدريسى نفراً من العلماء يصاحبهم الرسامون فى شتى الأنحاء ، وجعل يسجل ما يتلقاه منهم حتى فرغ منه ، وأسماه كتاب روجارى (١١٥٤) ، ثم أضاف إليه أجزاء ، وأطلق عليه نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق (وقد طبعت خلاصته مع إحدى وسبعين خريطة فى رومة سنة ١٥٩٢ ، وترجم قسماً منه إلى اللاتينية جبرائيل الصهيونى ، ويوحنا الحصرونى وطبع فى باريس عام ١٦١٩ ، ثم تعددت ترجماته وطبعاته) .

ولم يتميز عهد غليوم الأول الملقب بالشرير (١١٥٤ – ١١٦٦) إلا بثورة المسلمين على النصارى ، وضياع سلطان النورمان فى شمالى أفريقيا أما فى الناحية الثقافية فقد ترجم يوجين البارمى كتاب العين إلى اللاتينية ، وعاون على ترجمة المجسطى من النص اليونانى إلى اللاتينية (١١٦٠) وكليلة ودمنة من العربية إلى اليونانية (١١٦٩) .

وفى عهد غليوم الثانى الملقب بالصالح (١١٦٦ – ١١٨٩) اشتهر الانجليزى توماس براون Brown الذى ذكرته الوثائق العربية باسم القاضى برون (١١٧٠) ، ثم رجع إلى وظيفته فى وزارة الخزانة البريطانية ، وارتحل ابن جبير إلى صقلية (١١٨٧) فوصف غليوم بقوله : « وشأن ملكهم هذا عجيب فى حسن السيرة ، واستعمال المسلمين ، وهو كثير الثقة بهم ،

وساكن إليهم فى أحواله ، والمهم من أشغاله ، حتى إن الناظر فى مطبخه رجل من المسلمين ، وعليهم قائد منهم ، ووزراؤه وحجابه الفتيان . . . وهو يتشبه فى الانغماس فى نعيم الملك ، وترتيب قوانينه ، ووضع أساليبه ، وتقسيم مراتب رجاله ، وتفخيم أبهة الملك ، وإظهار زينته بالملوك المسلمين ، ومن عجيب شأنه المتحدَّث به أنه يقرأ ويكتب بالعربية ، وشعاره على ما أعلمنا به أحد المختصين به : الحمد لله ، حق حمده [١٥] .

ولم يخلف غليوم الثانى ، فاختير للعرش تانكرد وهو ابن غير شرعى لأحد أبناء روجه الثانى (١١٨٩) حتى إذا تزوج هنرى السادس إمبراطور ألمانيا ابنة عمه غليوم الثانى طالب بعرش صقلية وتوج فى بالرمو (١١٩٤) وخلفه بعد وفاته (١١٩٧) لابنه فردريك الثانى ، فتوجه البابا أينوسيت الثالث ، وكان وصياً عليه ملكاً على صقلية (١١٩٨) وزوجه كونستانس الأرغونية (١٢٠٩) ، وأمده بالمال لاسترجاع ألمانيا ، فتوّج إمبراطوراً فى أخن (١٢١٥) ، وبعد وفاة زوجته (١٢٢٢) تزوج إيزابلا وارثة عرش القدس (١٢٢٥) ، وأضاف إلى ألقابه لقب ملك القدس ، ثم حرمه البابا غريغوريوس (١٢٢٧) لتسويفه فى الحملة الصليبية ، فقام بها وما زال محروماً (١٢٢٨) ، ووقع مع الكامل أغرب معاهدة لمدى عشر سنوات (١٢٢٩) [١٦] .

ومال إلى المسلمين بعد رجوعه ، فأحسن وفادتهم فى مجمع الأمراء الألمان بفريولى (١٢٣٢) وشاركهم فى الاحتفاء بأحد أعيادهم على مرأى من الأساقفة الذين يعرفون أنه لم يبن فى حياته كلها إلا كنيسة واحدة ، وخرج ابنه هنرى عليه فزجه فى السجن (١٢٣٤) وفيه انتحر (١٢٤٢) ، واحتل دير مونتى كاسينو ، وطرد رهبانه فكرر البابا حرمانه (١٢٣٩) ، ولما حارب البابوية قضت عليه ، وكسته مسوح الرهبان حتى وفاته (١٢٥٠) ، وقد أوصى لابنه كنراد بعرش الإمبراطورية ، وعين مانفرد ابنه غير الشرعى نائباً عن الإمبراطور فى إيطاليا .

كان فردريك الثانى يتحدث بتسع لغات ، ويكتب بسبع ، وينظم باللاتينية شعراً أثنى عليه دانتى ، فولد الشعر الإيطالى فى بلاطه فى أبوليا متأثراً بالغزل العربى وناحياً نحو شعراء الفروسية والتشبيب فى بروفانس . ولطالما طوف الإمبراطور بحاشيته فى إيطاليا ، فنشرت الشعر بين أرجائها . وقرأ الإمبراطور بنفسه أمهات التراث الإنسانى ، وأنشأ مكتباً للترجمة أقام عليه ميخائيل سكوت (١٢٢٠ – ١٢٣٦) ، فبلغت منقولاته من المراجع اليونانية والعربية إلى

---

(١٥) رحلة ابن جبير ، طبعة مصر ص٣٠٨ .

(١٦) الفصل الثالث ، الحملات الصليبية .

اللاتينية ثلاثمائة مجلد فى : الفلسفة ، والطبيعيات ، والرياضيات ، والكيمياء ، والطب والحجامة ، وأدى عجز المترجمين فى مكتبى طليطلة وصقلية عن إيجاد مفردات لاتينية للمعانى العربية إلى دخول مفردات عربية وافرة فى اللاتينية ، وجعل بعض الترجمات أقل أمانة وإبانة وأحفل أخطاء وخلطاً حتى توفر عليها المستشرقون فيما بعد وأصلحوها ، منها : تعبير الأحلام لابن سيرين ترجمة ليون توزيوس من بيزا ونشره دراكسل (ليبزيج ١٩٢٥) ، وترجمة تيودور الأنطاكى رسالة فى حفظ الصحة ، وهى تلخيص سر الأسرار المنسوب خطأ إلى أرسطو ، ورسالة عربية فى تربية البزاة ، فكانت مع رسالة أخرى فارسية نواة كتاب صنفه فردريك نفسه لابنه مانفرد بعنوان : القنص بالطير فى ٥٨٩ صفحة مزدانة بمئات من الرسوم فى ستة أجزاء (نشر الجزأين الأولين شنايدر فى ليبزيج ، ١٧٩٨؛ وترجمه إلى الألمانية شوبفر ، برلين ١٨٩٦)

وبعد أن أحل رجال القانون محل رجال الدين أصدر فى مالفى الكتاب الأعظم (١٢٣١) ، وهو أول مجموعة منظمة للقوانين بعد جوستينيان[١٧] . إلا أن أعظم مآثره هو إنشاؤه جامعة نابولى (١٢٢٤) بمرسوم ملكى ، ووقفه الأموال الطائلة على أساتذتها وطلابها ، وجعله منقولات مكتب الترجمة كمصنفات أرسطو ، وابن رشد – كتباً مدرسية لها . واستدعاؤه يعقوب الأناضولى (المولود فى باريس ١١٩٤) للتدريس والترجمة ، وترجم إلى العبرية المجلسطى ومختصر المجلسطى لابن رشد (ولا تعرف له إلا هذه الترجمة العبرية) وشرح ابن رشد على مقولات أرسطو ، وشرحه على الايساغوجى لبورفيريوس والفرغانى . ثم أرسل نسخاً من الترجمات مع بعثة على رأسها ميخائيل سكوت إلى جامعات إيطاليا وباريس وأكسفورد ، فتفشت فلسفة ابن رشد فى معظمها . وتناول جامعة بولونيا بحمايته وأصلح مدرسة سالرنو – وقد جاءت فى كتب العرب باسم سالرنه – ووسعها ووهب لها نسخاً من الطب العربى[١٨] وأمر بتشريح الجثث فيها .

كما كان يحنى فى بلاطه بعلماء الشرق الأدنى ، وممن زاروه ليوناردو فيبوناتشى الذى قدم له بعد عودته من مصر رسالتين فى حل معادلات الدرجة الأولى والثانية (١٢٢٥) ، ويرسل بالأسئلة العلمية والفلسفية إليهم فعله مع ابن سبعين العالم المتصوف ، وكان قد اتهم بدينه وفر

---

(١٧) E. Kantorowics, Kaiser Friedrich 11, Berlin 1913.

(١٨) نشر سلفاتورى دى رنتسى – Salvatore de Renzi مجموعة مدرسة سالرنو الطبية ، فى خمسة أجزاء (نابولى ، ١٨٥٢ – ٥٩) .

من الأندلس إلى شمالى أفريقيا ، فأرسل إليه فردريك الثانى يستفتيه فى بعض المسائل الفلسفية ، فأجابه بكتاب عنوانه : الأجوبة عن الأسئلة الصقلية فى ٤٩ صفحة (منه نسخة خطية فى أكسفورد) ، فلقب به فليسوف صقلية ، وقد ذكر عنه المستشرق أمارى أحاديث طريفة ورأى البابا فى فلسفته .

وسار ابنه منفرد – الذى أشرف على ترجمة كتاب التفاحة وقد ضاع أصله العربى – وخليفته شارل دانجو ، وآل هوهنسجتين – على نهج فردريك الثانى ، فظلت الصلوات الخمس تقام فى معسكر لوكرا (١٢٦٦) وقربوا العلماء والشعراء وأغدقوا على أهل الفن والمترجمين ، فترجم الطبيب فرج بن سالم الصقلى فى نابولى كتاب الحاوى للرازى (١٢٧٩) وما زالت إحدى نسخه فى المكتبه الوطنية بباريس . وقد طبع فى البندقية عام ١٥٤٢ وستراسبورج ١٥٣٢ وآخر طبعة سنة ١٩٠٣ ، وتقويم الأبدان لابن جزلة (ستراسبورج ١٥٣٢) ، والطب التجريبى لجالينوس بترجمة حنين بن إسحق ، وكتاب الجراحة لابن ماسويه ؛ وترجم ناتان هاماتى السنتى فى رومة كتاب الحكم (١٢٧٩ – ١٢٨٢) ، وجعلوا من العربية – على الرغم من أن صقلية كانت ملتقى الثقافتين اليونانية والعربية والعلماء الذين ينقلونها إلى اللاتينية – لغة ثقافتهم ، وقد عاونهم على نشرها كونهم يملكون جنوبى إيطاليا ، واشتراك إيطاليا – البندقية وجنوى – فى الحملات الصليبية سعياً وراء التجارة ، واقتصارها منذ الحملة الرابعة على قطف ثمارها فعقدت مع سلاطين مصر معاهدات لقاء امتيازات عادت على الفريقين بثروات طائلة حاربا فى سبيلها البرتغاليين معاً ، مما جعل العربية ضرورة لتجارة المدن البحرية ولغة المعاملات والعقود والمعاهدات بين جنوة والبندقية وبين مصر ولبنان ، وبين تونس وبين بيزا (١٢٦٥) حتى سقوط القسطنطينية (١٤٥٤) ، فأضيفت التركية إلى العربية .

وهكذا كان ملوك صقلية وأمراؤها عرباً فى ثقافتهم وأساليب حياتهم[١٩] ، وتزينت نساؤها بزينة المسلمات من ثياب حرير وتخضيب وتعطر ؛ كما خلف العرب فى صقلية وجنوب إيطاليا : مصنع الحياكة فى قصر بالرمو الذى ظل يجهز الأسر الملكية فى أوربا بالبزات الرسمية حقبة من الزمن ، وفن تجليد الكتب على النمط العربى ، وما زال الطراز الإسلامى على قصر لازيزا (العزيز) وسقف معبد بولاتينا ، وقصور ملوك النورمان المزدانة بالنقوش العربية .

وتعاون العرب واليونان فى ترصيع كنائس بالرمو ، ودير مونريال ، وكنيسة سيغالو

---

(١٩) Dozy et de Goeje, Description de l'Afrique et de l'Espagne par Edrici, p. 3.

بالفسيفساء (١١٤٨) هذا خلا ما خلفوه فى اللغة الإيطالية مثل : قرمز ، كافور ، زعفران ، أكسير ، جزية ، صك ، رزمة ، قنطار ، دار الصناعة ، ورياح الموسم . ومن أسماء الأمكنة : قلعة النساء ، قلعة الجن ، مرسى الميناء ، منزل الأمير . وسائر أسماء آلات الطرب .

وقد أفاد الصقليون والإيطاليون من الفن القصصى الذى أمدهم العرب به : فجاء كتاب كليلة ودمنة لهم ؛ كما جاء كتاب ألف ليلة وليلة للفرنسيين فيما بعد – معيناً من الإيحاء ومثلاً رائعاً فى الاحتذاء ، وعلى غراره صنفوا : الطراز الأول لمحادثات الحيوان الفلسفية الأدبية ، وحكومة الحكومات ، والأمثلة الأدبية للحيوانات المتفاهمة إلخ .

وانتشرت فلسفة ابن رشد انتشاراً كاد يجعلها الطراز العصرى بين مختلف طبقات رجال الدين فى إيطاليا (١٢٤٠) ، وصادفت لدى الناشئة قبولاً عده بترارك ازدراء باليونانية واللاتينية ، فلم تأبه له ؛ إذ كانت ترى من مفاخرها التثقف بالقافة العربية على سنة بيك دى لاميزاندول ، ثم التشبه بدانتى زعيم أدباء إيطاليا . وقد حقق الأب آسين بلاثيوس صلة الملهاة (الكوميديا) الإلهية لدانتى برسالة الغفران للمعرى (مدريد ١٩١٩ – ١٩٤٢) ، وأثبت مونيوث سنديتو (معراج محمد ، مدريد ١٩٢٩) وأنريكوتيرولى (قصة المعراج ، والأصل العربى الإسبانى للملهاة الإلهية ، الفاتيكان ١٩٤٩) – أثبتا بالرجوع إلى مخطوطات لاتينية فى مكتبة باريس وغيرها اطلاع دانتى على الثقافة العربية وإفادته منها فى وصف الجنة والنار ، وذكر بعض أعلامها كالفارابى ، والغزالى ، وابن سينا ، والبطروجى ، وابن رشد الذى وضعه فى المحيط الخارجى للجحيم ، فى حين جعل الجنة مثوى سيجر دى برابان زعيم الحركة الرشدية فى جامعة باريس ، وبعض رجال الدين المسيحى من أهل النار ! .

وتأثر لوناردو دافنشى بالثقافة العربية فى ترجماتها اللاتينية وشروح ميخائيل سكوت ، وتوما الأكوينى ، وألبر الكبير ، وروجر بيكون عليها ، فظهر أثرها فى بعض رسومه .

أما الجامعات فقد ظلت جامعة بادوى تعج بنزعة ابن رشد العقلية من منتصف القرن الثالث عشر إلى مطلع القرن السابع عشر ، وانطبعت جامعة بولونيا بطابع علمانى كاد يكون معادياً للكنيسة ، ومنها ذهب القول المأثور : حيث يجتمع ثلاثة أطباء يكون اثنان منهم كافرين ! ومن أشهر زعمائها : بوبونتسى (المولود عام ١٤٦٢) أستاذ الطب والفلسفة فى جامعة بادوى الذى قيل فيه : إن روح ابن رشد قد تقمصت جسم بوبونتسى ؛ وبرونو (١٥٤٨ – ١٦٠٠) الذى حمل لواء ابن رشد وابن جبيرول ، وصاغ من آرائهما مذهب انطلاق فى فلسفة النهضة .

٥ – من الفاتيكان :

وبدأ الاستشراق أكثر ما يكون تنظيما وانتشاراً واستمراراً بالفاتيكان : باباوات وأساقفة ورهباناً ، واصطناع نفوذهم فى سبيله لدى الملوك والأمراء والبلديات ، والإفادة منه فى الرد على البروتستانتية بعد انفصالها عنهم مما جعله لغايات منوعة ، بوسائل متعددة ، فى أرجاء واسعة .

كان رجال الدين – ومرجعهم الفاتيكان يومئذ – يؤلفون الطبقة المتعلمة فى أوربا ، ولا سبيل لهم إلى إرساء نهضتها إلا على أساس من التراث الإنسانى الذى تمثلته الثقافة العربية ، فتعلموا العربية ، ثم اليونانية ، ثم اللغات الشرقية للنفوذ منها إليه[٢٠] دون ما استكبار إلا لدى بعض المتأخرين الذين برروا أخذ نصارى الغرب عن مسلمى الأندلس باستعادة ما أخذه المسلمون من الثقافة اليونانية والهليستينيه عن طريق نصارى الشرق[٢١] !

ولتخريج أهل جدل يقارعون فقهاء المسلمين واليهود ويردون عليهم ببراهين من كتبهم أنفسهم فى البلاد التى أجلاهم الإسلام عنها وبلغ أوربا منها – قصد الفرنسيسكانيون المغرب حيث قتل خمسة منهم (١٢٢٠) ، وانطلق الدومينيكيون (١٢٥٢) إلى بلغاريا ورومانيا والشرق .

ثم لتدريب أدلاء يتخاطبون بالعربية للقيام على خدمة الحجاج من أصقاع العالم إلى الأراضى المقدسة والعناية بعابرى السبيل ، وقد كلف الفرنسيسكانيون بمن يفدون على فلسطين ، والدومينيكانيون بمن يقصدون سوريا ومصر . وأسس البابا جمعية الجوالين (١٢٥٠) ، وقد انتشرت انتشاراً واسعاً (١٣١٨) واتخذ بعد سقوط القسطنطينية (١٤٥٣) لوناً آخر ، فطبع الأب مارتن روثP.M. Roth الدومينيكى دليل الحج لبرنارد دى برايدنباخB. de Breydenbach اشتمل على أبجدية عربية كاملة مع طريقة النطق بها فى حروف لاتينية ، وخريطة لمدينة القدس ، ورسم جماعة من اللبنانيين بأزيائهم الوطنية ؛ فكان أول ما عرفت أوربا من الطباعة العربية (ماينس ١٤٨٦ ، ثم تكررت طباعته إحدى وأربعين طبعة ١٧٢٨) ، وتلاه دليل توريانتينوس بالشعر ، وفيه المفردات العربية اللاتينية ثلاثاً وعشرين طبعة (١٥٠٥ – ١٥٣٦ ، ثم تعددت طباعته حتى عام ١٦٠٦) .

---

(٢٠) L. Halphen, L' essor de l' Europe aux IXéme- XIIIème siècles.

(٢١) Ch. Diehl et G. Marçais Hist. du Moyen âge, t 111, p. 322.

ثم لتحقيق الكتاب المقدس : فى عام ١٥٠٦ صنف روكلن – وكان علامة باليونانية والعبرية – كتابا فى قواعد اللغة العبرية رفعها إلى مصاف اليونانية واللاتينية فى معاهد إيطاليا وإسبانيا وفرنسا وإنجلترا والبلاد المنخفضة (بلاد القاع) وألمانيا .

وعلى أساس العبرية – نشرت التوراة فى طبعات متعاقبة : كطبعة الكالا (١٥١٤ – ١٥٢٠) وعرفت باسم الكردينال كزيمنس ، والطبعة السبعينية (١٥١٨–١٥٢٩) Aldine des Septante، وطبعة فيليب الثانى ملك إسبانيا (١٥٢٧–١٥٩٨) . ولما زيدت عليها ترجمة سريانية عرفت بطبعة أنفر (١٥٧٢) Anvers، وترجمات من التوراة لتريميليوس وتلميذه يونيوس من جامعة هايدلبرج بأمر فردريك الثالث على أساس سريانى وعربى (١٥٦٩ – ١٥٧٨) ، وطبعة باريس على أساس سريانى وعربى ، وعرفت باسم لى جاى (١٦٢٨ – ١٦٤٥) Le Jay ، وطبعة لندن عرفت باسم الأسقف والتون (١٦٥٤ – ١٦٥٧) B. Walton .

وبلغت العناية بالتوراة ذلك المبلغ الخطير لانفصال لوثر (١٥٢١) عن الفاتيكان وإنكاره على البابا سلطانه ومناداته بالإصلاح ، ثم اعتناق فردريك الثالث البروتستانتية (١٥٦٠) وانتشارها من بعد .

ولما كان الكتاب المقدس ، والتوراة أساسه المرجع الوحيد للعقيدة المسيحية – فقد نقل لوثر ومؤازروه وأتباعه إلى ميدانه وحاربوها فيه . وقابلهم الفاتيكان فى ميدانهم بعلمائه وفلاسفته ومؤرخيه ، ومعظمهم يتقن اللاتينية واليونانية والعبرية ، والشرقيون منهم يتقنونها ويضيفون إليها السريانية والعربية والكلدانية إلخ . ومن ذلك الميدان اتجه نشاط الفريقين العلمى ، وقد تركا المسلمين واليهود جانباً إلى الشرق مهد الديانة المسيحية ، فتناوله فى جغرافيته وتاريخه ولغاته وثقافته وتطوره للكشف عن أسرار الكتاب المقدس .

ومن أجدى الوسائل التى اصطنعها الفاتيكان وأوجزها .

تعلم العربية – ثم اليونانية واللغات الشرقية – فى مدارس إسبانيا وتعليمها فى مدارس أديارها وكاتدرائياتها وكراسى جامعاتها[٢٢] ونشر الثقافة عن طريق ما أسسه منها كجامعات : بولونيا (١٠٧٦) وتولوز (١٢١٧) ومونبلييه (١٢٢٠) وصلمنكة (١٢٢٧) وبياستزا (١٢٤٨) وروما (١٣٠٣) وفلورنسا (١٣٢١) وبادوى (١٣٦١) وغيرها ؛ كما استعان بالملوك والأمراء والبلديات على تأسيس مدارس اللغات الشرقية فى عواصم بلدانهم وتخصيصها

(٢٢) الفصل الخامس ، النهضة الأوربية .

بكراس مستقلة فى كبرى جامعاتهم فاستجابوا له ، ولكنها لم تنتظم إلا بعد أن قضى البابا أكليمنضس الخامس (١٣٠٥ – ١٣١٤) فى مجمع فيينا (١٣١١ – ١٣١٢) بإنشاء كراس للعبرية والعربية والسريانية – وأطلق عليها يومئذ الكلدانية ، أى الآرامية – فى جامعات : رومه على نفقة الفاتيكان ، وباريس على نفقة ملك فرنسا – وكان الفاتيكان ينفق على عشرين طالباً إكليريكياً من الشرق فى باريس بقرارات باباوية فى أعوام ١٢٤٨ و ١٢٥٨ و ١٢٨٥ – وأكسفورد على نفقة ملك إنجلترا . وبولونيا ، وصلمنكة على نفقة رجال الكنيسة فى كل من البلدين .

وقد خصت كلٌّ لغة من اللغات الثلاث بكرسيين وعين أساتذتها ، وأجزل أجرهم لقاء قيامهم بتعليمها تعليماً سليما يمكن من الكتابة والتخاطب بها ولقاء ترجمتهم لمصنفاتها إلى اللاتينية ترجمة علمية دقيقة .

ثم توسع الفاتيكان فى إنشاء الكراسى والمدارس والمكتبات والمطابع والمجلات فى إيطاليا ، وعاون على مثلها فى الغرب والشرق وعلى ترجمة التراث الإنسانى عن العربية – ثم عن اليونانية واللغات الشرقية – والاستعانة بمن يجيدها من النصارى والمسلمين واليهود على نقله نقلا حرفيًّا ، ثم يعمد رجال الدين إلى صياغته فى أسلوب لاتينى مبين .

ولم يكتفوا بتلك المنقولات ، فأنشأ دون رايموندو الأول رئيس أساقفة طليطلة مكتب المترجمين فى طليطلة (١١٣٠) ، وأشرف ميخائيل سكوت على مكتب الترجمة الذى أنشأه فردريك الثانى فى صقلية (١٢٢٠ – ١٢٣٦) ، وأفادوا من مكتب ألفونسو الحكيم (١٢٥٢ – ١٢٨٤) والمصنفات التى أمر الملوك والأمراء بنقلها أو نهض العلماء بها ونشروا جميع ذلك فى مدارسهم ومعاهدهم وجامعاتهم ، ومنها انتقلت إلى مثيلاتها فى أوربا ، وظل بعضها يدرس فيها حتى القرن السابع عشر .

وكان فى ترجمة الفلسفة أو الطب أو الفلك إلخ نقل لسائر العلوم لأن اليونان والعرب من بعدهم خلطوا بينها جميعاً – فجمع ابن سينا فى رسالة النفس آراء الفلاسفة إلى أصول الدين على شىء من تصوف الشرق ومذاهب الهنود – ولم تفرع إلا فى متوسط القرن الخامس عشر . ولما كان الشرق أسبق فى الحضارة من أوربا بنحو ثلاثة قرون – فقد أخذت عنه فى العصر الوسيط بادئة بالعبرية ، لغة الشعوب الأولى ، ولكن العربية تفوقت عليها ، لأنها لغة العلم ، ولغة الفلاسفة ، كابن رشد ، وابن سينا وغيرهما[٢٣] . وكان الكندى والفارابى وابن

---

(٢٣) • Nouveau Larousse Illustré. v 6, p. 541.

سينا أشهر المتقدمين فى الترجمات الفلسفية ، وابن باجه وابن طفيل وابن رشد فى الطبقة الثانية . ولكل منهم مذهب واحد فى الحقيقة وإن اختلفوا فى العرض ما داموا أخذوا جميعاً بالأفلاطونية الحديثة .

وحاول الكثيرون منهم التوفيق بين أرسطو وأفلاطون[٢٤] إلا أن الفلسفة الإسلامية منيت بعقبات كان من العسير تذليلها ؛ إذ تمثل أصحابها تراث اليونان وجمعوا بعضه إلى بعض ، وحاولوا التوفيق بينه وبين الدين . وأبدعوا منه نظريات ومذاهب اختلفوا فيها اختلافاً كبيراً فِعْلَ مدرسة الإسكندرية من قبلهم ويهود إسبانيا من بعدهم ونصارى أوربا الذين أخذوا عنهم ؛ مما حمل الكنيسة على تحريم فلسفة أرسطو وشروح ابن رشد عليه فى أشهر معاقلها وهى جامعة باريس .

لقد انتقلت الفلسفة من مدرسة شارتر (١١١٧) إلى جامعة باريس (١٢٠٠) لتزلزل عقائد طلابها ، فأسرعت الكنيسة إلى تحريم قراءة كتابى ما وراء الطبيعة ، والفلسفة الطبيعية لأرسطو والشروح عليهما (١٢١٠ – ١٢١٥ – ١٢٤٠) ، ولما عادت جامعة باريس إلى تعليمها (١٢٥٥) أعادت الكنيسة تحريمها (١٢٦٣) ولكن الحرمان لم ينفذ لتأكيد توما الأكوينى لها بأنه من الممكن تطهيرهما (١٢٦٦) ، ثم أصبحت لجنة الامتحان البابوية تحتم على الطلاب درس أرسطو دراسة وافية لنيل الشهادة .

أما فلسفة ابن رشد فكان أثرها فى المسيحية أشد منه فى الإسلام ، فقد اضطهده معاصروه اضطهاداً أضاع أصول معظم كتبه العربية ، وسلمت ترجماتها بالعبرية . وطفق الأوربيون يحملون على فلسطين ويستعيدون إسبانيا وصقلية ، حتى إذا نقلوا من الثقافة العربية فلسفة أرسطو وابن سينا وابن رشد وغيرهم انبثت النزعة العقلية فى أوربا ، ونالت سن معتقدها ، واختلف رجال الدين فيها . وأول من نشر فلسفة ابن رشد – ميخائيل سكوت ، وموريس الإسبانى ، وإسكندر الهاليسى . فوجدها وليم الأوفرنى أسقف باريس – وكان يناصر البحث العلمى – قد استحوذت على عدد كبير من طلاب جامعة باريس (١٢٤٠) ، وراحوا يلتهمون نتائجها دونما تمحيص ، وأغوقوا فيها (١٢٥٦) فروع البابا ألكسندر الرابع وكلف ألبر الكبير أن يكتب رسالة فى وحدة العقل للرد عليها ، والذهاب إلى جامعة باريس لمناهضتها ، فأناب عنه توما الأكوينى . وكان سيجر دى برابان (١٢٣٥ – ١٢٨١) كاهناً متحجراً فى العلم مطلعاً على الفلسفتين الإسلامية واليهودية ، فتزعم الحركة الرشدية فى جامعة باريس ، وبلغ بها

---

(٢٤) Foges, La Phi., v 4, p 2.

الذروة (١٢٦٦ – ١٢٧٦) على الرغم من انتصار توما الأكوينى على الرشدية انتصاراً أدى إلى تحريمها (١٢٧٠ – ١٣٢٤) وإلى إدانة سيجر (١٢٧٧) وسجنه فى روما .

وشجر النزاع حولها بين الرهبانيات طوال مائة عام ، وقسم الدفاع نفسه إلى معسكرين : الصوفى الأفلاطونى ومعظمه من الرهبان الفرنسيسكانيين ، والعقلى الأرسطاطلى وجله من الرهبان الدومينيكيين . هذا على اختلاف فيما بين الرهبانية الواحدة : فتوما الأكوينى الدومينيكى اعتمد على فلسفة ابن رشد – مع أنه من أشد خصومه – فى التوفيق بين الفلسفة والدين . ورد عليه زميله رايموندو مارتينى الدومينيكى فى كتابه – خنجر الإيمان – مستنداً إلى حجج الغزالى وغيره ممن تصدوا لمجادلة المشائيين .

ودحض جيل الرومانى آراء ابن رشد باعتماده على صوفية ابن عربى – ولم يعبأ بهم أرمنجو ، وهو طبيب فرنسى واسع الاطلاع على الثقافة العربية ، فترجم منها كتاب القانون لابن سينا ، وفلسفة ابن رشد (١٢٨٤) – وانتقده رايموندولوليو الفرنسيسكانى فى مجموعة ردود على ابن رشد (باريس ١٣٠٩ – ١٣١١) ، ثم طلب البابا يوحنا الثانى والعشرون (١٣٢٥) مراقبة الأساتذة فيما يدخلونه عن اللغات السامية فى كراسى الجامعات ، على أثر انتشار الثقافة السريانية واليهودية والعربية .

واستمرت الرقابة بين شدة ولين حتى أقر الملك لويس الحادى عشر تدريس أرسطو بشرح ابن رشد (١٤٧٣) وقد ظلت جامعة باريس طوال ثلاثة قرون زعيمة التفكير الحر فى أوربا ، ولها من النفوذ فى الدين والدولة مالا عهد لمعهد علمى به منذ أرسطو ، وملتقى نخبة المفكرين الممتازين أمثال : بيار ابيلار ، ووليم الكوشى ، وميخائيل سكوت ، ويوحنا السالسبورى ، وتوما الأكوينى ، وبونا فنتورا ، وألبر الكبير ، ودونس سكوتوس وسيجر دى برابان ، وروجر بيكون ، ورايموندو لوليو . فهؤلاء هم تاريخ الفلسفة السكولاستيكية (١١١٠ – ١٤٠٠) التى تميزت فى مصطلحاتها وأغراضها وصياغتها بدقة وحجة ووضوح لم يعرفها الأقدمون أنفسهم ، وعلى ضوئها درسوا القانون الرومانى ووضعوا الشريعة الكنسية ، فكانت من خير ما تمخضّ عنه العقل البشرى فى العصر الوسيط .

ولما سقطت القسطنطينية فى أيدى العثمانيين (١٤٥٣) ، ورحل علماؤها عنها بمخطوطات العلوم والآداب والفنون إلى أوربا – وأنفق مجلس شيوخ البندقية الأموال الطائلة فى اقتناء مخلفات القديسين الشرقيين من القسطنطينية ، وعرض عشرة آلاف دوقة ، ليظفر برداء المسيح – رجعت المدرسة السكولاستيكية ، رجوع العلماء والأدباء وأصحاب الفنون إلى

الأصول اليونانية ، وجعلوها كبرى دعائم النهضة الأوربية ، إلا أن أثر الفلسفة الإسلامية ظل جليًّا متنوعاً متتابعاً حتى بعد تنخلها من عناصرها الدينية – حتى إن الكردينال دى كوزا رجع عن رده على الإسلام بكتابه: السلام العالمى عن طريق التوفيق بين الأديان الموحة المتعددة – فى المدرسة السكولاستيكية على تعدد مذاهبها : الأرسطاطلية ، والأفلاطونية الحديثة ، والأوغسطينية ، وفيمن زاولها عن طريق الفلسفة اليهودية تأثر سبينوزا بموسى بن ميمون فى الاعتماد على الرياضيات لإثبات وحدة الكون فى جميع التصورات . ولدى الذين قادتهم نزعتها العقلية إلى الخروج على المسيحية مع احتفاظهم بقانونها الأخلاقى من أمثال فولتير ، وديدرو ، وداروين ، واسبنسر ، ورينان .

وكان لأولئك الرهبان فضل فى عمارة أوربا ومدها بالمهندسين والرسامين والمثالين منذ القرن التاسع ، واصطناع عباقرتها فى تشييد أديرتهم وكنائسهم وقصور أمرائهم وتزيينها بالروائع : فرسم ليوناردو دافنشى صورة العشاء الأخير على جدار معظم دير الدومينيكيين فى ميلانو (١٤٩٥ – ١٤٩٨) ، فما زالت أشهر الصور على الإطلاق فى العالم ، وفى الحفاظ على التراث الطبى من الضياع وتمهيد السبل لزراعة النباتات الطبية ، وقد كتب بدرو الإسبانى أوسع مصنفات الطب انتشاراً فى العصر الوسيط .

وفى تصنيف الموسوعات وأشهر أصحابها : ألكسندر نكهام ، وتوما كانتمبرى ، وبوفيه صاحب المرآة الكبيرة ، وكان هدفه نقل ٤٥٠ كتاباً من اليونانية واللاتينية والعربية . وفى علم الميكانيكا ؛ فقد سبق جوردان جراديوس نيوتن إلى عدد من المبادئ الأساسية فيها .

وفى الرياضيات : صنف جوانس دى سكروبسكو رسالة فى الكرة الأرضية ، وأخرى بعنوان الرياضيات للملايين أطلق على أرقامها الأرقام العربية .

وقام جربر ، وأدلرد أوف باث ، وميخائيل سكوت وألبر الكبير ، وروجر بيكون بتجارب علمية ، وانتهوا إلى مبادئ أساسية حطمت ما كان لأرسطو وبلنى وجالينوس من سلطان على العقول ، ولكن الناس اتهموهم بالسحر ؛ لأنهم لم يكونوا يصدقون أنهم حصلوا علمهم ذاك بالوسائل الطبيعية ، فعزوا مصنفاتهم فى الحجر السحرى إلى جابر بن حيان الكيمياوى العربى الشهير لينجوا بأنفسهم من غضب المتزمتين والعامة ؛ كما عرفت أوربا أدق المعلومات عن الشرق الأقصى ، وصححت رحلة ماركو بولو عن طريق الرحالة من الرهبان .

وأول مطبعة أنشأها الراهبان : سفا ينايم ، وبامرتز فى دير سوبياكو (١٤٦٤) ، ثم نقلاها إلى رومة (١٤٦٧) ، وبدأت الطباعة فى البندقية وفى ميلانو (١٤٦٩) وفى فلورنسا

(١٤٧١) وفى ماينس حيث طبع الأب روث الدومينيكى دليل الحج ، وفيه الأبجدية العربية (١٤٨٦) وقبل أن يختتم القرن الخامس عشر صدر عن إيطاليا ٤٩٨٧ كتاباً منها ٣٠٠ فى فلورنسا و ٦٢٩ فى ميلانو ، و ٩٢٥ فى رومة ، و ٢٨٣٥ فى البندقية ، ونشر التراث اليونانى بتكاليفه ، وصنف كاليبينو الراهب الأوغسطينى معجماً فى اللاتينية والإيطالية أخذ يزداد كلما أعيد طبعه حتى اشتمل على إحدى عشرة لغة (١٥٩٠) .

٦ – طلائع المستشرقين :

جربر دى أورالياك (٩٣٨ – ١٠٠٣) Jerbert de Oraliac

من الرهبانية البندكتية (المؤسسة عام ٥٢٩) قصد الأندلس ، وأخذ على أساتذتها فى مدارس ريبول وأشبيلية وقرطبة ، حتى أصبح أوسع علماء عصره ثقافة بالعربية والرياضيات والفلك ، ولما ارتحل إلى رومة سما على أقرانه ، وانتخب حبراً أعظم باسم سلفستر الثانى (٩٩٩ – ١٠٠٣) ، فكان أول بابا فرنسى ، وقد أمر بإنشاء مدرستين عربيتين : الأولى فى رومة مقر خلافته ، والآخرى فى رايمس وطنه ، ثم أضيف إليها مدرسة شارتر ، وقيل : إنه أول من صنع ساعة رقاصة ، ووصف حروف الغبار وصفاً علمياً ، وبث الأعداد العربية فى أوربا – التى كان ينقصها رقم الصفر – وترجم بعض الكتب الرياضية والفلكية كالزيج المنصورى (١٠٠٠) ، وله دراسة عن كتاب أقليدس بالعربية (محفوظات كنيسة وستر بإنجلترا) ، وقد نشر نيك بوبنوف مصنفاته الرياضية (برلين ١٨٩٩) .

قسطنطين الأفريقى (المتوفى عام ١٠٨٧) Constantinus Africanus

ولد فى قرطاجنة ، ورحل إلى خراسان وبغداد والشام ومصر والقيروان والهند ، ولما رجع إلى تونس وقع أسيراً ، ثم اعتنق النصرانية والتحق بمدرسة الطب فى سالرنة (١٠٦٠) ، وترهب فى دير مونتى كاسينو ، وطفق يترجم كتب الطب والفلك من العربية إلى اللاتينية عن إسحق بن عمران ، وكتاب العلاج العام لإسحق الإسرائيلى ، وكتاب التقاسيم وزاد الحاضرين لتلميذه أحمد بن الجزار – وجميعهم قيروانيون – والقسم النظرى من كتاب الملكى لعلى بن عباس ، وبعض رسائل الرازى .

ولكنه انتحل بعض ما ترجم ككتاب المقالات العشر فى العين لحنين بن إسحق ، فجعل عنوانه : كتاب قسطنطين الأفريقى فى طب العيون ، وقد جمعت آثاره ، وعددها ٢٤ مصنفاً ، ونشرت فى ليون (١٥١٥) وبال بسويسرا (١٥٢٩) .

أوجو دى سانتالا (نزل بسرقسطة ١١٠٧ – ١١١٩) Ugo di Santalla

آثاره : ترجم بإشراف أسقف طرزونة شرح البيرونى على الفرغانى ، ورسائل فى الكيمياء وعلم الرمل .

وقد أحصى ترجماته بول تانيرى (المذكرات العلمية ، جـ ٤ ص ٢٩٥ – ٤١١) .

ديكويل (لمع اسمه عام ١١٢٥) Dicuil

راهب آرلندى تتلمذ على كلونارد ، وزار مصر ، ووصف أهرامها ، وحقق أبعادها وطوى كتابه – الجغرافيا – على تقرير تيودوسيوس وأبحاث الرحالة إلى مصر فى عهده .

أدلرد أوف باث (١٠٧٠ – ١١٣٥) Adelard of Bath

ولد فى مدينة باث ونسب إليها ، وانخرط فى سلك الرهبانية البندكتية ، وطلب العلم فى تور والأندلس وصقلية ، وأهدى أسقف سرقسطة أحد كتبه (وقد نشره هانز فيلنر ، فى مونستر ١٩٠٣) ومصر ولبنان وأنطاكية واليونان (١١٠٤ – ١١٠٧) والقدس وجمع معارف فى علوم الطبيعة والفلك والرياضيات . وعند عودته إلى إنجلترا عين معلماً للأمير هنرى الذى أصبح فيما بعد الملك هنرى الثانى ، وقد أهدى إليه أحد كتبه ، وأشتهر باختباره سرعة الضوء والصوت ، وتضلعه من ثقافة العرب الذين آثر مذهبهم فى العلم على مذهب الفرنجة ، فقال فى كتابه المسائل الطبيعية ، وهو محاورة بينه وبين ابن أخيه خريج جامعات الفرنجة :

« إننى – وقائدى هو العقل – قد تعلمت من أساتذتى العرب غير الذى تعلمته أنت ، فبهرتك مظاهر السلطة بحيث وضعت فى عنقك لجاماً تقاد به قياد الإنسان الحيوانات الضارية ولا تدرى لماذا ؟ ولا إلى أين ؟ . فقد منح الإنسان العقل لكى يفصل به بين الحق وبين الباطل . . فعلينا بالعقل أولاً فإذا اهتدينا إليه – لا قبل ذلك – بحثنا فى السلطة ، فإن سايرت العقل قبلناها وإلا . . » .

آثاره : ترجمات لاتينية وافرة فى الفلك والرياضيات أشهرها زيج الخوارزمى بتنقيح المجريطى (مكتبة مازارين ، فى باريس ١١٢٦ ، وقد شرحه سوتر فى تقارير مجمع العلوم فى الدانمرك ٣ ، ١٩١٤) ، وكتاب الغورقى (نشره كورتيس ، ليبزيج ١٨٨٩) ، وكتاب الأصول لأقليدس ، وكان الأصل اليونانى مفقوداً (١١٣٠) ، وما زالت إحدى رسائله عنه

محفوظة فى مكتبة كنيسة وستر . وترجم بمعاونة يوحنا الأشبيلى أربع كتب لأبى معشر البلخى (١١٣٣) ، وصنف كتاب الأسئلة الطبيعية (١١٣٠ ، وقد نشره مارتن موللر طبعة حديثة ، مونستر ١٩٣٤) وعدة مباحث فى الفلك والرياضيات . والأسطرلاب (١١٤٣) والقنص بالباز (محفوظة فى مكتبات باريس ومونبلييه وإنجلترا) والعلوم عند العرب (طبع بعد عام ١٤٧٢) ، وقد ساعد بنفوذه على نشر تلك العلوم وازدهارها فى أوربا جمعاء .

بطرس المكرم (١٠٩٤ – ١١٥٦) Pièrre Le Venerable

فرنسى من الرهبانية البندكتية ، عينته لسعة اطلاعه رئيساً على ديرها فى كلونى ، (١١٢٣) Cluny – الذى شيدته فى فرنسا (٩١٠) وانطلقت منه حركة إصلاح عمت النصرانية الأوربية ، وجعل منه رهبان الإسبان – وعلى رأسهم الأب أبيلار – بعد أن آووا إليه فى القرن الثانى عشر – مركزاً خطيراً لنشر الثقافة العربية ، وقصد الأندلس (١١٤١ – ١١٤٣) فيمن قصدها مستزيداً من علومها ، ولما رجع إلى ديره نظمه وطفق يصنف الكتب فى الرد على علماء الجدل المسلمين وشجب اليهود ، وقد طبع من مصنفاته ثلاثة (ليبزيج ١٨٩٦) كما أوعز بترجمة القرآن .

يوحنا بن داود الإسبانى (منتصف القرن الثانى عشر) Juan Abendaud

يهودى متنصر ، خلف رايموندو على أسقفية طليطلة ، ولم يكتف بما نقله مع زميله جونتالث ، فترجم وحده كتاب العلل ، وكتاباً فى الطبيعة وثالثاً فى المنطق ، وفلسفة ابن رشد (١٢٣٠) وكتاب السياسة لأرسطو عن ترجمة ابن البطريق (١١٣٥ ، ثم أعاد ترجمته فيليب الطرابلسى ١٣٤٠) وكتاب الجبر للخوارزمى ، وصنف كتاباً بعنوان كتاب الخوارزمى فى الحساب العملى (نشره ب . بونكومبانى فى رومة ١٨٥٦) وترجمات من الكرابيسى والفرغانى (فرارا ١٤٩٣ ، ونور مبرج ١٣٥٧ ، وباريس ١٤٥٦) وكتابى القبيسى فى النجوم وأبعاد الكواكب .

يوحنا الأشبيلى (منتصف القرن الثانى عشر) Juan de Sevilla

. هو الآخر يهودى متنصر ، عنى بعلم التنجيم ، فترجم بمعاونة أدلرد أوف باث إلى اللاتينية أربعة كتب لأبى معشر البلخى (١١٣٣ ، وقد طبعت فى البندقية ١٤٩٥ و ١٥١٥ وفى

فرانكفورت ١٥٧٧) ، وترجم وحده : رسالة فى الأسطرلاب للمجريطى ، وكتاباً فى آلات الساعات لثابت بن قرة ، وبمعاونة جيرار دى كريمونا : المدخل إلى علم هيئة الأفلاك للفرغانى (١١٣٥) ، والموجز فى الفلك للفرغانى (١١٤٢) ، وإحصاء العلوم للفارابى (وقد نشر الترجمة اللاتينية كليمنس باور – محاضرات فى تاريخ الفلسفة ١٩٠٠) ، وصنف موجزاً فى الحساب .

روبرت أوف تشستر (أشهر من عام ١١٤١ إلى ١١٤٨) Robert of Chester

من أهالى كيتون ، تلقى العلم فى تشستر ، ونسب إليها ، ودخل الرهبانية البندكتية . وقصد الأندلس وعين أسقفاً على بامبلونة (١١٤٣) وتثقف بالثقافة العربية ولا سيما بالعلوم الرياضية والفلكية منها ، واختير مستشاراً لصقلية ، واشترك هو وزميله هرمان الدلماطى فى ترجمة العلوم ؛ كما جاء فى خطاب بطرس المكرم إلى القديس برنار : قابلت روبرت وصديقه هرمان الدلماطى عام ١١٤١ بالقرب من الأبروفى إسبانيا ، وقد صرفتهما عن علم الفلك إلى ترجمة القرآن باللاتينية ، فأتماها عام ١١٤٣ ، وكانت أول ترجمة للقرآن استعانا فيها باثنين من العرب ، نشرها بيبلياندر فى ثلاثة أجزاء (بال ١٥٤٣ ثم نقلت إلى الإيطالية والألمانية والهولندية) ، وأنجز ترجمته الثانية الأب ماركوس الطليطلى بتوجيه من الأسقف رودريك دى وادا فى القرن الثالث عشر ، ونشر الساندرو باجانينى أول طبعة للنص العربى (البندقية ١٥٣٠) ، ولكن روبرت وهرمان لم ينصرفا عن العلم ، فترجما كتاب الجبر والمقابلة للخوارزمى فى خمسة فصول (١١٣٥ ، ثم نشرها كربنسكى عام ١٩١٥) ، فكانت ترجمتهما له ولكتاب الكيمياء من بعده فاتحة العلوم المنظمة فى أوربا . وترجم روبرت كتباً فى الكيمياء والفلك ، وصنف عدة رسائل (١١٤٧) ، وعاون على إدخال حساب المثلثات فى إنجلترا (١١٤٩) ولفظ الجيب عند تحقيق زيج البتانى وقد فقدت ترجمته – والزرقالى ؛ كما عدل كتاب الخوارزمى ، لينطبق على خط الزوالى فى لندن (١١٥٠) .

هرمان الدلماطى (المتوفى ١١٧٢) Hermann Alemanus

زميل روبرت فى رهبانيته ودراساته وترجماته ، وقد عين رئيساً لشمامسة سرابيلونا ، ثم راعياً لكنيسة شينى (١١٤١ – ٤٣)، ثم أسقفا على استورجه ، ونقل إصلاح المجسطى للمجريطى (تولوز ١١٤٣ ، ثم نشر النص فى إسبانيا ١٢٤٠ ، ثم نشر هايبرج الترجمة

اللاتينية فى كتاب الهيئة الصغير لبطليموس ، ليبزيج ١٩٠٧) وعلم الأخلاق وبعض الرسائل فى الكيمياء ، وصنف فى كتاب البلاغة والشعر لأرسطو مستعيناً بشرح الفارابى على البلاغة ، وبتلخيص ابن رشد للشعر . وفى الجوهر متأثراً بالعرب ، كما ترجم رودلف دى بروجس R. de Bruges تلميذ هرمان شروح مسلمة المجريطى على النظام الرياضى لبطليموس .

أفلاطون التيفولى (برشلونة ١١٣٤ – ١١٥٤) Platon di Tivoli

آثاره : ترجم رسالة ابن الصفار فى الأسطرلاب ، وزيج البتانى بعنوان : علم النجوم (١١٤٠ ، وقد حققها ريجو مونتانوس ، وأصلح ما فيها وعلق عليها ، نورمبرج ١٥٣٧ ، بولونيا ١٦٤٥ – ٤٦) والحساب لبطليموس عن ترجمته العربية ، وكتاب الجبر والهندسة العملية لإبراهيم برحيا عن العبرية (١١٤٥) ، وقد وصف ترجماته كورتس (ليبزيج ١٩٠٣) .

دومنجو جونثالث (المتوفى ١١٨١) D. D. Gonzalez

نائب أسقف شقوبية ، وهو ويوحنا بن داود الإسبانى أشهر النقلة بمكتب المترجمين فى طليطلة ، فكان يوحنا يملى النص العربى بالإسبانية العامية ويصوغه جونثالث باللاتينية الفصحى ، وقد نقلا عن ابن سينا : النفس ، والطبيعة ، وما وراء الطبيعة ، وأقساماً من الشفاء (باريس ١٥٦٨) وكتاب الشفاء ، فى ٢٨ مجلداً . وعن الفارابى : إحصاء العلوم . وعن الغزالى : مقاصد الفلاسفة . وعن ابن جبيرول : ينبوع الحياة (١١٥٠ ، وقد نشره باوماكر فى مونستر ١٨٩٢ – ٩٥) ، ونقلا فلسفة الكندى (أوجسبرج ١٤٨٩) وعن قسطا بن لوقا ، وماشاء الله ، والبلخى وأبى حفص الطبرى ، وابنه أبى بكر محمد (البندقية ١٥٠٣) والخياط (نورمبرج ١٥٦٤) والبتانى ، وثابت بن قرة ، ومسلمة المجريطى ، وابن أبى الرجال . ولم يقف جونثالث عند الترجمة ، بل صنف عدة كتب[٢٥] .

دانييل أوف مورلى (اشتهر بين ١١٧٠ – ١١٩٠) Daniel of Morley

درس فى أكسفورد وباريس . ولم يكن راضياً عن جامعات الغرب ، فقصد الأندلس ، بعد أدلرد بحثاً عمن هم أكثر حكمة من فلاسفة العالم على حد قوله . وكلف أحد نصارى

(٢٥) الفصل الخامس ، النهضة الأوربية .

طليطلة المدعو غالب ترجمة المجسطى لبطليموس (١١٩٧) ، ثم عاد إلى إنجلترا بمجموعة كبيرة من المصنفات النفيسة ، وألف كتاباً بعنوان : الطبيعة السفلية والعلوية (وقد كتب سنجر بحثاً عن المؤلف ، إيزيس ١٩٢٠) وآخر فى الفلسفة .

جيرار دى كريمونا (١١١٤ – ١١٨٧) Gérard de Grémona

إيطالى من الرهبانية البندكتية قصد طليطلة حيث تضلع من العربية ، وعكف على مصنفاتها ، فترجم منها ما لا يقل عن ٨٧ مصنفاً فى الفلسفة والطب والرياضيات والفلك وضرب الرمل فقدت معظم أصولها العربية ، وسلمت ترجماتها اللاتينية ، فمهدت مع مثيلاتها إلى إنتشار العلوم فى أوربا وتوثيق صلتها بالشرق ، وقد توفى فى طليطلة .

آثاره : فى الفلسفة والمنطق ترجم : رسائل الكندى فى العقل والمعقول وفى الجواهر الخمسة (البندقية ١٥٠٧ ، وستراسبورج ١٥٣١) وبمعاونة يوحنا الأشبيلى : إحصاء العلوم للفارابى (نشر فى مجموعة آثار الفارابى ، باريس ١٩٣٨) وترجم وحده : شرح الفارابى على أرسطو وترجمة موسى بن طبون وإسحق الإسرائيلى . وفى الطب : القانون لابن سينا (وقد أعيد طبع ترجمته خمس عشرة طبعة وواحدة عبرية ، ١٤٧٣ – ١٥٢٧ ، ثم اعتمدت المطابع ترجمة أندريا الباجو ، ونشرت النص العربى فى رومة ١٥٩٣) وللرازى الأسرار فى الكيمياء (١٤٨٠ – ١٤٨٩) والمنصورى ، ثم العقاقير ليحيى بن سرابيون (البندقية ١٤٧٩ و١٤٩٧ و١٥٣٠ و١٥٥٠) والأدوية المركبة للكندى . وتفصيل الأزمان ومصالح الأبدان ، وعلق عليه بالعربية ، والأنواء ، وكلاهما للأسقف ربيع بن زيد . وللزهراوى الجراحة من كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف (وقد نشر متنا وترجمة ، فى جزأين ، البندقية ١٤٩٧ ، وبال ١٥٤١ ، وأكسفورد ١٧٧٨) والأدوية المفردة لابن الوافد ، وبضعة كتب لأبقراط ، وعلى بن رضوان . وفى الرياضيات والفلك : علم الفلك وأصول الهندسة لأقليدس ، وقسمة الزاوية لابن موسى ، وبمعاونة يوحنا الأشبيلى : المدخل إلى علم هيئة الأفلاك للفرغانى (١١٣٥) والموجز فى الفلك للفرغانى (١١٤٢) ووحده : رسالة فى حساب الجبر والمقابلة للخوارزمى فقد أصلها العربى ، وسلمت ترجمتها باللاتينية (وقد نشرت فى تاريخ العلوم والرياضة فى إيطاليا) وكتاب المجسطى (البندقية ١٥١٥) وكتاب الهيئة فى إصلاح المجسطى (نورمبرج ١٥٣٤) والشفق لابن الهيثم (لشبونة ١٥٤٢) وتسعة كتب فى الفلك لجابر بن أفلح ، والزيج الطليطلى ، وكتاب الأحجار الكريمة المنسوب إلى أرسطو ،

وميزان الذهب لثابت بن قرة ، ورسائل لأحمد بن يوسف ، والنيريزى ، وأبى كامل ، وأبى عثمان عريب بن سعد . وفى الطبيعيات والميكانيكا : للكندى ، وثابت بن قرة ، وابن الهيثم .

هذا عدا رسائل متفرقة لأرسطو وجالينوس وأبقراط وأقليدس وأرشميدس وسواهم ، وما خلا مصنفات له من أشهرها كتاب المرئيات ؛ كما أعيد من ترجماته الأولى طبع الأنواء لربيع بن زيد (باريس ١٨٣٨ – ١٨٦٥) ، ومقالة فى الجبر (رومة ١٨٥١) ، وتعليق عبد الباقى على كتاب أقليدس العاشر (رومة ١٨٦٣ ، وليبيا ١٨٩٦) ، وتعليق النيريزى على الكتب العشرة الأولى لأقليدس (١٨٨٩) ، والموجز فى الفلك للفرغانى (١٩١٠) .

ميخائيل سكوت (١١٧٥ – ١٢٣٦) Michael Scot

أسكتلندى من الرهبانية البندكتية . تلقى العلم فى أكسفورد ، ولما حاز من جامعة باريس لقبَ العالم الرياضى غادرها إلى بولونيا وطليطلة حيث أتقن العربية والعبرية ، وانكب على تصنيف أول مؤلف نفيس له هو خلاصة الفلسفة لابن سينا فأتمه عام ١٢١٠ ، وترجم تاريخ الحيوان لأرسطو من العربية فى عشرة أجزاء ، وكتاب السماء والعالم لأرسطو بشرح ابن رشد ، وكتاب الهيئة للبطروجى (١٢١٧) ، ثم أغراه الإمبراطور فردريك الثانى بالذهاب إلى صقلية ، وأقامه منجماً فى بلاطه ومشرفاً على مكتب الترجمة (١٢٢٠ – ١٢٣٦) ، فنقل مختصر كتاب الحيوان لابن سينا وأهداه إلى الإمبراطور وبعض كتب أرسطو وشروح ابن سينا عليها بمعاونة أندريا الباجو .

وفى سنة ١٢٣٠ تقدم إلى جامعة أكسفورد بترجمة مؤلفات أرسطو ، ثم صنف عدة كتب نفيسة ، وأتم ترجمات لشروح ابن رشد على ماكتبه أرسطو عن السماء والعالم والنفس ، (مجموعة كتب أرسط ، بادوى ١٤٧٢) فذاعت فلسفة ابن رشد فى أوربا ، ونال سكوت منها ومن تأليفه فى العلوم الخفيّة : كأسس علم التنجيم ، والمدخل إلى علم التنجيم ، والأنواع ، التربية ، إلا أن مهارته جعلته فوقها ، وعلى حسن الصلة بفردريك الثانى والباباوات ، ولو أن دانتى جعل النار مثواه .

آثاره : كتاب علم النفس (١٤٧٧ ، ثم عرف بعنوان سر الأسرار) والمسألة الدقيقة عن طبيعة الشمس والقمر فى علم السيمياء . ورواية ابن سينا لكتاب أرسطو فى علم الحيوان (١٤٩٢) وكتاب فى التنجيم ، وكتاب فى العلاقة بين الصفات الخلقية والصفات الجسمانية ،

وكتابان فى الكيميا ، وذكر ثمانياً وعشرين طريقة للتنبؤ بالغيب . وقد ترجمت جميعها إلى عدة لغات ، هذا ما عدا دراسات خطية لمّا تطبع .

ليوناردو فيبوناتشى (١١٧٠ – ١٢٤١) Leonardo Fibonacci

من بيزا ، عاش مع والده ، وكان مديراً لإحدى المؤسسات التجارية فى الجزائر ، حيث تعلم العربية على أستاذ مسلم ، ثم طوف فى مصر ولبنان وسوريا واليونان وصقلية ، فأتقن رياضيات أرشميدس ، وأقليدس ، وهيرون ، وديوفانتوس ، وصنف كتاب العدد (١٢٠٢) وهو أول عرض مُسْتَوْفٍ للأرقام الهندية ، وللصفر ، وللطريقة العشرية يقوم به مؤلف أوربى . ثم كتاباً فى الهندسة التطبيقية (١٢٢٠) مستخدماً لأول مرة فى أوربا الجبر فى حل النظريات الهندسية ، ثم صنف رسالتين (١٢٢٥) لفردريك الثانى لحل معادلات الدرجة الأولى والثانية (وقد أصدر الأمير بونكومبانى طبعة كاملة لمصنفات فيبوناتشى ، رومة ١٨٥٧ – ٦٢) .

توماس هيبرنيكوس (المتوفى فى عام ١٢٦٩) Thomas Hibernicus

آرلندى درس فى باريس وسافر إلى جنوبىّ إيطاليا حيث تعلم العربية والعبرية وعلمها فى مدارس الرهبان .

توما الأكوينى (١٢٢٥ ؟ ١٢٧٤) Thomas d'Aquin

ولد فى قصر روكاسيكا بمدينة أكوينى من أسرة ألمانية شريفة ، وتعلم فى دير مونتى كاسينو للرهبان البندكتيين (١٢٣٠) حتى احتله فردريك الثانى وطرد رهبانه (١٢٣٩) ، وأعاد توما إلى قصر أبيه فالتحق بجامعة نابولى – وكان طلابها مقبلين على ترجمات ميخائيل سكوت باللاتينية لفلسفة ابن رشد وترجماتها بالعبرية ليعقوب الأناضولى ، وعلى شروح بطرس الآيرلندى المتعصب لأرسطو ، فتموج عقولهم بالمؤثرات اليونانية والعربية والعبرية – وتعرف توما إلى الرهبان الدومينيكيين (١٢٤٤) ، وقرر لانخراط فى سلكهم لانصرافهم إلى العلم والتعليم العالى فى أشهر العواصم ، فخيب بقراره آمال أسرته فى رياسة دير مونتى كاسينو ، فسجنته فى القصر سنة كاملة . ولما أطلقت سراحه أرسله رؤساؤه إلى باريس (١٢٤٥) فى طلب العلمّ فأخذه على ألبر الكبير . وأعجب الأستاذ بتلميذه فصحبه إلى دير كلونى وسهر على

تعليمه ، ثم صرفه إلى جامعة باريس للتدريس ، فباشره فيها بتفسير الكتاب (١٢٥٢ – ٥٤) وشروح عن آراء المعلم اللومباردى أسقف باريس (١١٥٩) وصاحب كتاب جوامع الكلم الذى اتخذته الجامعة نموذجاً لحل المسائل الفقهية والفلسفية (١٢٥٤ – ٥٦) فأجمع طلابه وزملاؤه – على الرغم مما كان بينه وبين الآخرين من خلاف ولا سيما الرهبان الفرنسيسكانيين الذين كانوا يسلكون إلى معرفة الله طريق الصوفية ، فصدمتهم فلسفته العقلية – على الإعجاب به حتى إن المحاضرات كانت تتوقف فى الجامعة لإقبال أساتذتها وطلابها على محاضراته ، وقد أحرز لقب أستاذ فى اللاهوت (١٢٥٦) .

واستدعى إلى رومة (١٢٥٩) ، وتولى إلقاء المحاضرات فى مدرسة البلاط البابوى زهاء عشر سنين ، واجتمع هو وأستاذه ألبر الكبير ، وهو فى ذروة من النضج ، ووليم دى مربيكا كبير المترجمين عن اليونانية ؛ فطفق وليم يترجم أرسطو وتوما يفسره على ضوء ترجماته وشروحه المنقولة من العربية ، ثم بدأ بتصنيف أشهر مصنفاته .

ولما تفشت الرشدية فى باريس ، وكانت مشبوهة فى نظر الكنيسة – استدعى ألبر الكبير لمناهضتها ، فاعتذر بصحته ، وأوفد عنه توما ، فراح يناضل أبناء الكنيسة وقد انقسموا إلى فريقين على جبهتين : فيدافع عن أرسطو لا حباً به بل خشية من ابن رشد ، ويصدّ فى الوقت نفسه هجمات زملائه الرهبان الذين لا يأخذون بالعقل حتى انتصر على الرشدية انتصاراً أدى إلى تحريمها (١٢٧٠ ، ثم تكرر حرمانها مراراً) فعكف على التأليف ، ثم استدعاه دوق أنجو (١٢٧٢) لتنظيم جامعة نابولى ، ولكنه ما لبث أن انقطع عن التدريس (١٢٧٣) وفيما كان قاصداً ليون لحضوره مجمعها وافاه أجله (١٢٧٤) وقد عدت الكنيسة ٢١٩ قضية من قضاياه الفلسفية خروجاً على الدين (١٢٧٧) ، ثم أعلنت قداسته (١٣٢٣) ، فأضحى أكبر فلاسفتها ، وما زالت فلسفته أساس الدراسات اللاهوتية الكاثوليكية حتى اليوم .

آثاره : خلاصة المذهب الكاثوليكى ضد الوثنيين فى أربعة مجلدات (١٢٦٧ – ٧٣) ، وتفاسير لما بعد الطبيعة ، ووحده العقل ، وأزلية العالم ، ومجموعة الردود على الخوارج . وقد طبع من مصنفاته عشرة آلاف صفحة من القطع الكبير اعترف فيها صراحة باقتباسه عن ابن سينا ، والغزالى ، وابن رشد ، وإسحق الإسرائيلى ، وابن جبيرول ، وابن ميمون ، ونقل بعضها إلى العربية اللبنانيون : يوحنا فهد ، والمطران نعمة الله أبو كرم ، والمطران بولس عواد ناقل الخلاصة اللاهوتية (بيروت ١٨٨٧ – ١٩٠٨) .

بونا فنتورا (١٢٢١ – ١٢٧٤) Bonaventura

ولد فى بانياريا من أعمال توسكانا ، وانخرط فى سلك الرهبنة الفرنسيسكانية ، وأصبح رئيساً عاماً لها ثم كردينالا ، ومندوباً للبابا فى مجمع ليون ، وقد قرأ الترجمات العربية للفلسفة ، وصنف فيها كتباً نفيسة عد بها من كبار الفلاسفة وأئمة الكنيسة .

ألبر الكبير (١٢٠٦ – ١٢٨٠) Albert le Grand

من أسرة ألمانية شريفة ، دومينيكى الرهبانية ، تلقى العلم فى جامعة بادوى ، وديركلونى ، وستراسبورج ، وباريس حيث تخرج من جامعتها ، وطار له صيت بتدريس الفلسفة واللاهوت فيها ، وعد كبير الأساتذة الدومينيكيين ، وعليه أخذ توما الأكوينى – وقد قيل لولا ألبر ما وجد توما – فاستدعاه رئيس أساقفة ألمانيا وسامه أسقفاً على ريجنزبرج (١٢٦٠) ، ثم ترك منصبه ؛ ليتوفر على دراسة كنوز الثقافة الوثنية والعربية واليهودية والمسيحية ، فأدهش معاصريه بسعة علمه ولقبوه دكتوراً عاماً . ثم سافر فى بحر الشمال ، وزار مختبرات التجارب ، وكتب عنها وصنف كتاباً ضخماً فى حيوان ألمانيا ، وسبعة كتب فى الخضر والنبات ، فعد أعظم علماء التاريخ الطبيعى فى عصره . أما فى الفلسفة فقد اقتبس عن الفارابى ، وابن سينا ، والغزالى ؛ واستعان بشروح ابن رشد[٢٦] بالرغم من نقده إياه وابن ميمون . وألف كتاباً كبيراً طبع بعنوان : تفاصيل فى الفلسفة وقضايا فلسفية ولاهوتية (١٤٧٣ ، ثم توالى طبعه فى القرن السادس عشر) .

رايموندو مارتينى (١٢٣٠ – ١٢٨٤) R. Martini

من الرهبانية الدومينيكية ، وفى طليعة العشرين راهباً الذين أتقنوا العربية منهم ، وعلمها فى تونس ، وكان يحسن العبرية والكلدانية واليونانية . وقد تبحر فى القرآن ، وحفظ صحيحى مسلم والبخارى .

آثاره : خنجر الإيمان ، وهو كتاب فى الرد على المسلمين واليهود ، اعتمد فيه على حجج الغزالى وغيره ممن تصدوا لمجادلة المشائيين ، وقد شاع أصله العربى وترجمته اللاتينية ، وظل

---

(٢٦) Pièrre, F. Mandonet: Sieger et l'averroisme latin au 111 siècle (Louvain 1911).

طوال قرون نموذجاً رفيعاً للجدل الدينى بين فقهاء المسيحية والإسلام واليهودية (باريس ١٦٥١) .

جوفروا (اشتهر عام ١٢٩٠) Jofroi

آرلندى ترجم من اللاتينية واليونانية والعربية إلى الفرنسية ترجمته النص العربى لسر الأسرار المنسوب إلى أرسطو باللاتينية .

روجر بيكون (١٢١٤ – ١٢٩٢) Roger Bacon

إنجليزى تلقى العلم فى أكسفورد ، وباريس (١٢٤٠) حيث نال الدكتوراه فى اللاهوت . ودرس الطب ، ولما شرع يكتب رسالة فيه اضطر إلى السفر إلى إيطاليا بحثاً عن مظانه فى المصنفات العربية ، وتعلما لليونانية ؛ ثم عاد إلى أكسفورد (١٢٥١) فعلم فيها ، وأنفق ألفى جنيه على اقتناء الكتب والآلات ، واستأجر اليهود ؛ ليعلموه وطلابه العبرية ويعاونوه على قراءة التوراة بنصها ؛ ثم انضم إلى الرهبانية الفرنسيسكانية (١٢٥٥) ، ولكنه فصل من التدريس لتعرضه للرهبان ، وسجن حتى أنقذه صديقه البابا إكليمنضس الرابع ، ودعا بيكون إلى تشجيع تدريس اللغات الشرقية فى جامعات أوربا لأغراض علمية صرف ، فلبى دعوته رؤساء أكسفورد الفرنسيسكانيون : روبرت جروستيست ، وتوماس أوف ويلز ، وآدم أوف مارش ؛ ووعده بتحقيق أمنيته البابا إكليمنضس الرابع – الذى كتب إلى بيكون فى إرسال نسخة من مصنفاته سراً وعاجلاً ، فأجمل موسوعته فى الكتاب الأكبر ثم الأصغر ، وأرفقها بدراسة فى تضاعف الرؤية وخلاصة لآرائه هى الكتاب الرابع ، فبلغت البابا بعد وفاته (١٢٦٨) ، وأولع بعلوم الرياضيات والفلك والكيميا ، وأكب على كتب بطليموس وابن الهيثم والرازى ، فإذا نتيجة دراسته اختراع المجهر ، ومادة تشتعل فى الماء ، ونوع من البارود ، وتنبؤه بالطيران ، ووضع قاعدة لصنع المتفجرات ، فلقب بدكتور المعجزات وسجن مرة أخرى . وقد اعتمد فى فلسفته على ابن سينا الذى وصفه بأنه عميد الفلسفة بعد أرسطو ، وعلى ابن جبيرول ، وإسحق الإسرائيلى ، وغيرهم ؛ وأحدث فى تفسير اللاهوت بدعاً سجن بها (١٢٧٧) ، ولكنه عد من كبار الفلاسفة .

آثاره : صنف رسائل فى النحو ، والمنطق ، والرياضيات ، والهيئة ، والموسيقى ، والبصريات ، والتنجيم ، والكيمياء ، والطب ، والعلوم التجريبية والزراعة ، وغيرها . من

أشهرها : رسائل فى العدسات المحرقة ، وفى طاقة الاختراع والطبيعة العجيبة ، وفى تقدير الحادثات الطبيعية (١٢٥٧ – ١٢٦٦) والكتاب الأكبر فى أربعة مجلدات ؛ وما زال الإقبال عليه شديداً حتى اليوم ، ومختصراه (١٢٦٨) وموجز الدراسات الفلسفية (١٢٧١) ، وموجز الدراسات اللاهوتية (١٢٩٠) ؛ كما ترجم عن العربية كتاب مرآة الكيمياء (نورمبرج ١٥٢١) وسر الأسرار (وقد نشر الترجمة ستيل فى أكسفورد ١٩٢٠) ، وانتقد ترجمة ساراشل كتاب النبات لأرسطو . وللأب بويج اليسوعى دراسة بعنوان : هل قرأ بيكون كتب العرب ؟ (محفوظات التاريخ العقائدى والأدبى ١٩٣٠) .

ألفرد دى ساراشل (أوائل القرن الثالث عشر) Alfred de Sarashel

آثاره : ترجم رسائل كثيرة فى الكيمياء ، وكتاب النبات المنحول لأرسطو (الذى نقله حنين بن إسحق ، ونقحه ثابت بن قرة) والشفاء لابن سينا (١٢٠٠) ؛ كما صنف عدة كتب ظهر فيها التأثير العربى واضحاً جلياً .

أرنولد الفيلانوفى (١٢٣٥ – ١٣١١) A. Villeneuve

ولد فى ضواحى بلنسية ، وتعلم اللغات العربية والعبرية واليونانية ، وتخرج فى الطب من جامعة نابولى ، وعلمه فى باريس ومونبلييه وبرشلونة وروما ، ثم عين طبيباً لملك أراغون ، ولطالما حذره بقوله : إن لم تحم الفقراء من الأغنياء فسوف يلقى بك فى الجحيم ! فلم يغضب الملك عليه ؛ وإنما كان يسفره فى كثير من البعثات . وأنذر البابا بونيفاس بخراب الكنيسة إن لم تصلح أحوالها ، ولما شفاه أهدى له قصراً فى أنيانى ، ورمى بالسحر والإلحاد ، فطاردته محكمة التفتيش ، ولكن الباباوات والملوك دافعوا عنه ، وحموه منها حتى غرق فى سفارة من قبل ملك أراغون إلى البابا اكليمنضس الخامس .

صنف أرنولد كتباً وافرة فى الطب ، والكيمياء ، والتنجيم ، والسحر ، واللاهوت ، وعصر النبيذ ، وتفسير الأحلام متأثراً بالعربية ؛ وترجم كتاب الأسرار فى الكيمياء للرازى وثلاثة كتب لجالينوس ، وخمسة للكندى فى معرفة قوى الأدوية المركبة ، ورسائل قسطا بن لوقا ، وابن سينا ، وأبى العلاء زهر ، وكتاب الصيدلة لأبى الصلت الدانى .

رايموندو لوليو (١٢٣٥ – ١٣١٤) R. Lulio

من أغرب شخصيات العصر الوسيط المتعددى المواهب ، فهو شاعر وقصصى ورياضى ومعلم ومبشر ومتصوف ورحالة . ولد فى بالما من جزيرة ميورقة ، وقضى فى تعلم العربية وحفظ القرآن – على عبد أسود – والقطلونية تسع سنوات (١٢٦٦ – ١٢٧٥) ، ثم قصد باريس ، وانضم إلى الرهبانية الفرنسيسكانية ؛ وأقنع ملك أراغون (١٢٧٦) بإنشاء مدرسة لها فى ميرامار لتدريس العربية ، وأشرف بنفسه عليها ، فتخرج منها بالعربية أكثر من ١٣ راهباً ، ولكنها نجحت بصعوبة مدة ٣٥ سنة . وقد مهد بها إلى إنشاء معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد ومراكز الثقافة الإسبانية فى الشرق ؛ وصنف فى أثناء ذلك كتب جدل كثيرة فى الرد على المسلمين واليهود ؛ وعلم فى أديار مختلفة ، ثم أخذ بالصوفية فأبحر إلى تونس (١٢٩١) حيث عرف بالصوفى النصرانى ، وطفق يطوف فيها فقيراً واعظاً ، فاعتقل وسجن ثم طرد . وبلغ نابولى (١٢٩٣) وبذل قصارى جهده (١٢٩٤ – ١٣٠٠) لإثارة اهتمام الكنيسة والملوك بتعليم اللغات الشرقية فى جامعات أوربا ، فأخفق إخفاقه فى قبرص (١٣٠٠) وليون (١٣٠٥) فحول وجهه شطر بوجى من أعمال الجزائر (١٣٠٦) مبشراً ، فلم يكن فيها أوفر حظاً منه فى تونس ، فسجن ستة أشهر ثم طرد ، وفى عودته استقر بساحل بيزا (كانون الثانى – يناير ١٣٠٧) وحارب فلسفة ابن رشد فى باريس (١٣٠٩ – ١٣١١) وحضر مؤتمر فيينا (١٣١١ – ١٣١٢) حيث شاهد مساعيه تكلل بالنجاح ؛ إذ أقر البابا أكليمنضس الخامس إنشاء الكراسىّ للعبرية والعربية والكلدانية فى أربع الجامعات الرئيسية بأوروبا وهى : باريس ، وأكسفورد ، وبولونيا ، وصلمنكة ، ثم فى جامعة خامسة بالبلاط البابوى . مع تنصيب أستاذين لكل من هذه اللغات الثلاث فى كل كرسى ، وتكليفهم بترجمة نصوص عبرية وعربية وكلدانية للرد على منتقدى الدين . وقد ظل هذا القرار أصلاً من أصول القانون الكنسى أكثر من خمسمائة عام .

ورجع رايموندو لوليو إلى شمالى أفريقيا وقتل فيها (١٣١٤) ، وقد عرف لوليو من المتصوفين المسلمين : ابن سبعين ، وابن هود ، والششترى ، وابن مدين ، وعفيف التلمسانى ؛ وشغف بابن عربى ، وتأثر بهم فى ابتداع مذهب الإشراق تأثره بكليلة ودمنة فى مصنفه : الكتاب السعيد فى عجائب الدنيا .

أما من حيث الفلسفة فقد أخذ بالأفلاطونية الحديثة ، ولكنه تميز عنها بطابعه الخاص

وبمعارضته للرشدية ؛ كما أفاد من ترجمة أرنولد الفيلانوفى كتاب سر الأسرار للرازى ، واشتهر بفنه الذى عرفته أوربا بالفن اللولوى الكبير ، واقتبس منه بعد ثلاثة قرون أثناثيوس كيرخر ، وأعجب به الفيلسوف الألمانى ليبنتش .

آثاره : منوعة وافرة أربت على المئات ، أشهرها : تأملات فى الله ، وهى موسوعة فى علوم الدين كتب القسم الأكبر منها بالعربية ثم نقلها وأتمها بالقطلونية (١٢٧٢) ، وحرب الفروسية (١٢٧٤) ، وعقائد الشباب (١٢٧٤) والحكماء الثلاثة ، وفيه يعرض يهودىٌ ومسيحى ومسلم فضائل الدين الذى يعتنقه (ميورقة ١٢٧٥) والصديق والمحبوب كتبه على الطريقة الصوفية (شمالى أفريقيا ١٢٨٣) والترترى والنصرانى ، وبلانكرنا ، وهى رواية دينية طواها على قصص رحلاته فى بلاد الإسلام حتى السودان ، وقد عدت من روائع الأدب فى العصر الوسيط (مونبلييه ١٢٨٣) ، والكتاب السعيد فى عجائب الدنيا ، وهو قصة خيالية تشتمل على قسم خاص بالحيوان (١٢٨٦) ، وكتاب الفن الكبير (باريس ١٢٨٩) ، والفن هو حقيقة مبتدعة وقد نقل إلى العربية (١٢٩١) وشجرة العلم (١٢٩٦) والأراضى المقدسة (١٣٠٩) والردود على ابن رشد ، وكان يوقعها بتوقيع واهم ، (١٣٠٩ – ١٣١١) والتعاون بين النصارى والمسلمين (ميورقة ١٣١٢) ، وصنف بالعربية : الكندى فى التأليف ، ومناظرات بين رايموندو المسيحى وعمر العربى فى بوجى ، ثم ترجمه إلى اللاتينية عام ١٣٠٨ ، ونشر فى مائتى صفحة (بلنسية ١٥١٠) .

وقد نشر مجموعة مؤلفاته سلسينجر فى عشرة مجلدات (ماينس ١٧٣١ – ١٧٤٢) وكان رَنسْر قد طبع مجموعة مؤلفاته للفن الكبير مزدانة بالرسوم (١٥٩٨) ، وأعيد طبعها ١٧٠٩ – ١٧١٩) ثم صنف عنه : هللفريخ (برلين ١٨٥٨) وكنجر (مونستر ١٩٠٩) وبروبست (تولوز ١٩١٤) وريبيرا فى كتاب مباحث ورسائل (مدريد ١٩٢٨) والأب أوجين قر القرنسيسكانى (الدراسات اللولوية ، ميورقة ١٩٥٧ ، والقاهرة ١٩٦١) .

تورميدا (١٣٥٢ – ١٤٣٢) A. Turmeda

ولد فى ميورقة ، وتلقى علومه فى إيطاليا ، وانضم إلى الرهبنة الفرنسيسكانية ، ورحل إلى تونس حيث أسلم على يد السلطان أحمد بن أبى بكر الحفصى ، وتسمى بعبد الله بن على . واشتغل ترجاناً ، ثم ولاه السلاطين المكوس ؛ ولا يزال قبره داخل باب المنارة .

آثاره : تحفة الأريب فى الرد على أهل الصليب معتمداً فيه على آراء ابن حزم (١٤٢٠) ، (وقد رد عليه أسين بلاثيوس) ، والتعاليم الصالحة وضعه بالقطلونية ، ورباعيات مملكة ميورقة ، وكتاب النبوات ، ومجادلة الحمار (١٤١٧) مستنداً فيه إلى رسائل إخوان الصفا كتبه بالقطلونية ، ثم ترجم أربع مرات إلى الفرنسية ، ومرة إلى الألمانية ، ونشر فى المجلة الإسبانية (مجلد ٢٤ ، عام ١٩١١) .

الأسقف جويستنيانى (المولود عام ١٤٧٠) Guistiniani, Aug

ولد فى جنوى من أسرة نبيلة أحسنت تربيته ، ولما بلغ الرابعة عشرة قرر الانضمام إلى رهبانية الإخوة المبشرين ، فصرفته أسرته عنها برحلة إلى بلنسية حيث تعلم اللغة العربية ، وبعد عودته انخرط فى سلك الرهبانية الدومينيكية (١٤٨٨) ، وتابع دراسة اللغات الشرقية ، ثم درّس فى معاهد رهبانيته ، واتصل بأعلام عصره من المستشرقين أمثال : أراسموس ، والسير توماس مور ؛ وأنفق ثروته على جمع المخطوطات العربية والعبرية والكلدانية حتى إذا رقاه البابا ليون العاشر إلى أسقفية نيبو Nebbio (آب – أغسطس ١٥١٦) أهدى له كتاب المزامير بخمس لغات هى : العربية والكلدانية واليونانية واللاتينية والعبرية ؛ وضمنه حواشىَ وشروحاً وافرة (فانو ١٥١٦) ، وصحح ترجمة دليل الحائرين لموسى بن ميمون (باريس ١٥٢٠) .

ليون الأفريقى (١٤٩٤ – ١٥٥٢) Leo Africanus

هو الحسن بن محمد الوزارن الفاسى ، ولد فى فاس ، وقيل فى غرناطة ، وقام برحلات طويلة فى أقطار الإسلام حتى غربى أفريقيا ، ودون مشاهداته فى كتاب نفيس أنشأ فصوله فى رومة ، وقد اتخذها مقرًّا له بعد وقوعه فى أسر قراصنة البحر المسيحيين (١٥٢٠) ، وتسمى بجيوفانى ليونى نسبة إلى البابا ليون العاشر الذى أظله بحمايته ، ولكنه اشتهر بليون الأفريقى ، ثم رجع إلى تونس (١٥٥٠) وتوفى فى حمى دينه .

آثاره : المعجم العربى العبرى اللاتينى (ما زال مخطوطاً فى مكتبة الإسكوريال تحت رقم ٥٩٨) وكتاب وصف أفريقيا (١٥٢٦) بدأه بالعربية ، ثم أتمه بالإيطالية ، وظل مدة المرجع الوحيد لدراسة السودان (البندقية ١٥٥٠ والطبعة التاسعة ١٨٣٧ وترجمة فرنسية فى أنفر ، ١٥٥٦ و٩٩ و١٦٣٢ ، وترجمة جديدة فى ليون ١٥٦٦ ، ثم ترجمه إلى الفرنسية جان فامبورال ، باريس ١٨٣٠ ، وشيفر ١٨٩٦ ، وترجمه بورى إلى الإنجليزية ، لندن ١٦٠٠ ،

ثم ترجمه براون ، فى ثلاثة أجزاء ، بشروح ضافية ، لندن ١٨٩٦ ، وترجمه لورسباخ عن الإيطالية إلى الألمانية هربون ١٨٠٥) ولماسينيون كتاب المغرب فى السنوات الأولى من القرن السادس عشر نقلاً عن ليون الأفريقى (الجزائر ١٩٠٦) ورسالة فى القياس المسطح (نشرتها إنجيلا كوداتزى فى تكريم دلافيدا ١٩٥٦) وكتاب فى التراجم (١٥٢٧ ثم نشر فى مجموعة هوتنجر ، فى زيوريخ ١٦٦٤) .

٧ – من الحملات الصليبية :

وبين حربٍ وسلم تزوج الصليبيون بنات نصارى المشرق لقلة النساء فيهم ، وعقدوا مع المسلمين اتفاقات لحماية الصيادين وتأمين التجار والمسافرين ، وآثروا الأطباء المسلمين ، واتتمنوا صناعاً وفلاحين منهم على أعمالهم ، وصلوا فى مزاراتهم ، واستغاثوا بهم فى خصوماتهم الخاصة ؛ كما كان المسلمون يستنجدون الصليبيين على إخوانهم فى نزاعهم معهم .

وتزيا الصليبيون بأزياء المسلمين من عمامة وقفطان ، وشادوا بيوتهم على غرارهم ، وأكلوا التوابل والسكر مثلهم ، واتخذوا البواشق والخيول وكلاب الصيد لقنصهم ، ونقلوا عنهم : اصطناع النشابه المصلية ، وتقلد الدروع والجبة العسكرية ، وشارات الفرسان والأوسمة ، والطنبور فى الموسيقى العسكرية ، وحمام الزاجل لنقل أخبارهم ، وإشعال النار احتفالاً بالظفر ، وحفلات السيف ورمى الجريد ؛ وأضافوا فى المعمار – الطراز الشامى البيزنطى إلى النمط القوطى : أى الشرق المحور فى بناء أديارهم وكنائسهم وقصورهم وفنادقهم وحماماتهم وأثثوها بالرياش الشرق .

وجلب الصليبيون معهم – ولا سيما من إيطاليا ونورماندیا – هندسة البناء الحربى ، وما زالت حصونهم قائمة حتى اليوم ، ومن أشهرها : حصن الأكراد ، والمرقب ، وشقيف أرنون ، وأقسام من كنيسة القيامة ، وكنيسة القديس يوحنا فى بيروت (١١١٠) ، وبرجان على باب يافا رفعهما المهندس الذى بنى كنيسة سيدة باريس – بنيت على مراحل من ١١٦٣ إلى ١٢٣٠ – فى حملة الملك لويس التاسع . وخلف الصليبيون ضرباً من نظام الإقطاع ، وأنواعاً من السلاح والذخيرة والسفن وفنون الملاحة ، وأسماء القرى كسنجل والرينة فى فلسطين ، وبعض الأديار والشعائر الدينية المسيحية ، وألقاب أسرهم التى حورت على أيام حفدتهم ، ومنها : البرنس نسبة إلى أمراء تولوز ، ودريان إلى الكونت دى ريان ، وصوايا إلى

الكونت سافوى[٢٧] ، وفرنجية ، وصليبى ، والدوبهى ، وبردويل .

ولما أجليَ الصليبيون عن الشرق حملوا معهم إلى أوربا : طرازاً جديداً من النواعير اقتبسه الألمان عن نهر العاصى ، والزنجبيل ، وقصب السكر ، والتوت ، والحلى ، والمساحيق ، والأصباغ ؛ فعرفت بأسمائها العربية : آزير – أزرق . وللاك – ليلكى ، وسافران – زعفران . والأنسجة : دمشقى ، وموصلى ، وغزى ، وغيرها .

ثم أتقنوا صناعتها فغزوا بها العالم ، وسار بعض الزهاد (١١٥٠) على سنة القديس باسيل ، وانتشروا فى فلسطين ، فلما سقطت فى أيدى المسلمين هاجروا إلى قبرص وصقلية وفرنسا وإنجلترا ، ثم صدق البابا إينوسنت الثالث على قانونهم ، فعرفوا بالثالوثيين ، وكلفوا بافتداء المسيحيين الذين وقعوا فى أيدى المسلمين . وكان هيلارى أسقف بواتييه (المتوفى ٣٦٧) قد اقتبس من منفاه بلبنان بعض الترانيم الهليستينية ، ونقلها إلى اللاتينية ، فتأثرت من بعد بالشعر العربى والبروفنسى .

وأخذ الرهبان فى الحملات الصليبية عن النصارى الشرقيين عبادة العذراء ، وصلاة السبحة ، وشعيرة طريق الصليب ؛ وكانت اللاتينية لغة رجال الدين والفرنسية لغة الأشراف ، والإيطالية لغة البحارة والتجار ، والسريانية لغة أهل الجبال . ، والعربية لغة التخاطب اليومية ، فحمل الصليبيون معهم الكتاب الملكى فى الطب لعلى بن عباس الذى نقله إسطفان الأنطاكى وهو من بيزا (١١٢٧) ترجمةً أصدق من ترجمة قسطنطين الأفريقى ، وأضاف إليه كشافاً يونانياً عربياً لاتينياً للمصطلحات التى استعملها ديوسقوريدس (البندقية ١٤٩٢ وليون ١٥٢٣) وقصة كأس العشاء السرى ، وكليلة ودمنة ؛ وتأثر شوسر بألف ليلة وليلة . وبوكاتشيو بالحكايات الشرقية فى كتابه ديكامرون ، وعثر فيليب الطرابلسى فى أنطاكية (١٢٤٧) على مخطوط سر الأسرار بالعربية المنسوب خطأ إلى أرسطو ، فترجمه باللاتنية فأضحى أكثر المنقولات تداولاً فى العصر الوسيط .

وكان فى ذلك العهد ٤٤٦ شاعراً منهم أربعة ملوك : رتشارد الأول ، وفردريك الثانى ، وألفونسو الثانى ، وبدور الثالث ؛ فاصطحب بعضهم الشعراء فى حملاتهم ؛ كبيار فيدال (١١٦٧ – ١٢١٥) ، ولم يفتخروا جميعاً بها ، بل خرج منهم من أشاد بنجاح حملة فردريك المحروم ، وإخفاق حملة لويس القديس ؛ وهجا غيرهم رجال الدين ، وسخروا من الجحيم ، وسما ولتر فى نشيد الصليبيين فوق القتال ، فقال فيه : لكل الناس أم واحدة ،

---

(٢٧) Ristelhuebert, Traditions françaises au Liban, p 63.

والنصارى واليهود والمسلمون يعبدون الله ، والله يبسط رعايته على خلقه جميعاً .

وكان صلاح الدين الأيوبى بطل تلك الحملات ، فأرخ ابن العماد الأصفهانى لفتحه القدس ، ودوّن سيرته بهاء الدين بن شداد نشرها شولتنس متناً وترجمة لاتينية (ليدن ١٧٣٥) ، وأخذ عنها رينو فى كتابه مختصر ماكتبه مؤرخو العرب عن حروب الصليبيين (باريس ١٨٢٩) .

ونشأت بين فرسان الفرنجة والفارس أسامة بن منقذ (١٠٩٥ – ١١٨٨) صلات ودّ ، وشارك فى الحروب عليهم فوجد « أنهم بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير[٢٨] » . فى حين نقل الصليبيون إلى أوربا : أن المسلمين قوم متحضرون كرماء أمناء .

واعترف خصوم صلاح الدين له بالشهامة والنبل ؛ فصنف غليوم الصورى (١١٣٠ – ١١٩٠) وهو فرنسى الأصل ولد فى فلسطين ، وعين مستشاراً لبودوين الرابع ، ثم أصبح كبير أساقفة صور ، وكان يتقن الفرنسية واللاتينية والعربية ، صنف فى الحملات الصليبية الأولى تاريخاً بعنوان : حوادث ما وراء البحار (١١٨٤) ما زال مرجعاً ذكر فيه الحضارة الإسلامية ذكراً ملؤه الإجلال والإعجاب . وأملى جوفروا دى فيلهاردوين (١١٥٠ – ١٢١٨) من نبلاء فرنسا المقاتلين كتابه فتح القسطنطينية (١٢٠٧) ، وصنف بيار ديبوا كتاباً فى استرجاع الأراضى المقدسة (١٣٠٦) ، ودون سيرة لويس التاسع ملك فرنسا جان سير دى جوانفيل قيّم القصر فى شمبانيا وملازمه فى حملته الصليبية (١٣٠٩) ، وأطنب فى ذكر صلاح الدين : ولترسكوت فى قصة الطلسم ، ولسنج فى ناثان درفيزه وغيرهما كثر .

وقد نشر دى مالان ودى مينار مجموعة مؤرخى الصليبية متناً وترجمة فرنسية فى ستة عشر مجلداً اشتملت على نصوص من مؤرخى اللاتين واليونان والأرمن ، ومن العرب على ماكتبه عنها : أبو الفداء ، وابن الأثير ، والعينى ، وابن شداد ، وابن الجوزى ، وابن العديم ، وأبو شامة (باريس ١٨٧٠ – ١٨٩٤) ثم صدرت لها تتمه من حجم أصغر بعنوان : وثائق خاصة بتاريخ الصليبيين .

٨ – من الرحلات :

رسم بعض الرحالين والتجار الغربيين للشرق فى أذهان قرائهم صورة غامضة غريبة أو ناقصة مشوهة . وفى طليعتهم ماركو بولو الذى قضى فى الشرقين الأدنى والأقصى عشرين

(٢٨) الاعتبار ، ص١٣٢ ، وقد نقله إلى الإنجليزية الدكتور فيليب حتى (برنستون ١٩٣٠) .

سنة . ودون رحلته فى جزأين (أنفر ١٤٨٥) حشاهما بغرائب الثراء والأخلاق والأديان ، ثم صححها الراهب أوديريك البوردينونى بعد عودته من الهند والصين (١٣٢١) عن طريق التيبت وفارس برحلة ممتعة ، ويليها كتاب الكنوز وهو رحلة شاباى وفيها ضلالات ليس أقلها قوله : إن للشرقيين ثمانية أنامل ورأسين ! إلا أن ترهات هؤلاء وغيرهم لم تحل بين الغرب ورحيل المنصفين منه إلى الشرق : فزار فورير مصر ، وأحسن وصف بعض معالمها فى كتابه الدليل (١٥٦٥) ، وطوف رودزيفيل بسوريا ولبنان وفلسطين ومصر ، وفصّل الكثير من عادات أهلها وأخلاقهم وأحوال بلادهم ، واعترف لهم شاردن بأنهم شعب لطيف الأحدوثة خفيف الظل نابه مضياف (باريس ١٦٨٦) .

ورأى دى لافال فيهم قوماً روحيين قنوعين صوفيين يؤثرون الحياة الأخرى على الحياة الدنيا ، ولكن دى بروسلوس اتهمهم بأنهم واليهود سواء ، لا عهد تجارى لهم ولا ذمام فيهم ، فهم مراءون ، متقلبون ، انتهازيون ، يخفون جميعُ ذلك تحت برقع من السذاجة المصطنعة والكلم المعسول[٢٩] .

على أن المثقفين لم يأخذوا بتلك الأباطيل ، فردوها وحذروا منها ، فنعى فولتير على أولئك الرحالين والتجار اتخاذهم من شاذٍّ قانوناً وقياساً[٣٠] ، وحقق لوفا وصف بعض معالم مصر فى رحلته . (لا هاى ١٧٠٥) ، وتوافد على لبنان : لاكوبان ، ودى روزال ، ودرفو ، ودى نوانتيل ؛ ورجع برنار روجيه سبتيه بفسيلة من أرزه (١٧٣٧) غرسها فى حديقة النبات بباريس ، وما زالت حتى اليوم ، وأطلق فولناى على رحلته : ثلاثة أعوام فى مصر وبر الشام (١٧٨٣) وجون كارن : رحلة إلى لبنان فى القرن التاسع عشر ، وروبنصون : يوميات فى لبنان : تاريخ وجغرافيا . وهنرى جيز : بيروت ولبنان منذ قرن ونصف القرن . ولويس لورته : مشاهدات فى لبنان .

ورحل شاتوبريان إلى القدس وخلدها فى كتابه : عبقرية المسيحية (١٨٠٢) ولا مارتين إلى لبنان (١٨٣٢ – ٣٣) واستعان فى وصفه فى أثناء رحلته إلى الشرق فى مجلدين (الطبعة الثانية ، ١٨٣٨) – بفتح الله الصائغ والمستشرقين ؛ ودى نرفال (١٨٥١) ورحلته أصدق وصف لحياة الشرق وأكثرها إنصافاً ولا سيما لمصر – قد وصف فيها الزواج القبطى ، والحريم ، وليالى رمضان ، والمحافل وغيرها – (الطبعة الثانية فى جزأين ١٩٢٩) ؛ ونزل رينان بدير

---

(٢٩) de Bruslous, Dictionnaire universel de commerce, 1723.

(٣٠) Voltaire, Essai sur les moeurs Ch CXLII.

الآباء اليسوعيين فى غزير بلبنان حيث صنف كتابه : حياة يسوع ؛ ثم تتابع الرحالون الكتاب من أمثال : باريس ، وبوردو ، وتارو ، وبنوا ، ولوتى ، وليكونت ، وديهامل وغيرهم ؛ فخلدوا الشرق العربى بمصنفات نفيسة .

٩ – من السفارات :

كانت دول الشرق تسفر إلى أوربا وتستقبل سفراءها[٣١] ، إلا أن السفارات لم ينتظم أمرها وتعم دوله إلا بعد أن قويت شوكة الدولة العثمانية ، وبعثت فرنسا إليها أول سفير فوق العادة ، فأبرم معاهدة الامتيازات الأجنبية مع السلطان سليمان القانونى (١٥٣٥) ، وتشبهت بعض الدول الكبرى بها ، ثم تعددت سفاراتها إلى غيرها من بلدان الشرق ، وطفقت صحف فرنسا تذيع أخبار سفرائها لدى الباب العالى وأسرار قصوره ومغامرات حسانه ، فأغرت برحلات جديدة إلى الشرق أنصفته مما اتهمته به بعض الرحلات التى تقدمتها .

أما السفراء وملحقوهم الذين تخرجوا من مدارس اللغات الشرقية ، وبعثوا إلى الشرق وأقاموا فيه – فقد حققوا ما كتبوه فى مواضعه ، وعاونوا على جمع مخطوطاته وتعلم لغاته وإنشاء المطابع لنشر مصنفاته وترجمة روائعه – منهم أندره دى ريير قنصل فرنسا فى مصر الذى ترجم القرآن (١٦٤٧) ثم تلتها ترجمة سافارى (١٧٨٣) إلخ ، فكانوا نواة طيبة للاستشراق العلمانى .

واقتبس بعضهم بطول إقامتهم بين الشرقيين بعض عاداتهم ، فدخنوا الأفيون والنارجيلة وشربوا القهوة[٣٢] . واعتنق غيرهم الإسلام وبلغ الوزارة ، ونال رفيع الألقاب كبونفال باشا وغيره كثير .

ومنهم من عاب على قومه نظرتهم الخاطئة إلى الشرق فعل الأب شوازى بعد عودته من سيام فقال : إنهم يحيطون بنا إحاطتهم بالدببة للتفرج علينا ، حتى إن الملك نفسه لا يدع لنا من الوقت متسعاً للجواب على أسئلته كأننا خارجون من بلاد الأسرار !

ومنهم من وقف عند حد سفارته ولم يتعدها كالرزيلى الذى أسفره الملك لويس الرابع عشر إلى سلطان المغرب لفك الأسرى النصارى (١٦٣٠) ، بيد أن أشهر سفارة غربية فى البلدان

---

(٣١) الفصل الثالث ، فتوح الإسلام ، والفصل الخامس النهضة الاوربية .

(٣٢) Martino, L'Orien. dans la lit. franc. XVII et au XVIII siècle, p 94.

الشرقية كانت مغامرة الآنسة باتى كيتا التى أحبت تاجراً فارسيًّا فى باريس ، وصحبته إلى فارس حتى إذا توفى أعلنت نفسها سفيرة لفرنسا فى فارس (١٧٠٣) ، فجاءت مغامرتها موضوعاً فذاً لمجموعة من القصص والمسرحيات والأغانى .

واستبدلت أوربا بسفرائها فى الشرق سفراء فى عواصمها : فاستقبلت باريس سفراء : تركيا (١٦٦٩) وسيام (١٦٨٤) وفارس (١٧١٥) ثم سفير الهند بعد سنوات . وقد ذكر عبد الرحمن بن زيدان استناداً إلى الكونت دى كاسترى رسائل مولاى إسماعيل صاحب المغرب إلى لويس الرابع عشر ملك فرنسا ، وجيمس ملك إنجلترا ، والدون كارلوس ملك إسبانيا ، وفيها من اللوم والتهديد الشيء الكثير ؛ مما يدل على اتصالات بين تلك الدول عن طريق السفارات .

وكان معظم سفراء الشرق فخوراً بنفسه محبًّا للترف ساعياً إلى الجاه : فى أزياء فاخرة ، وحلى من ذهب وماس ، وضروب طيب على مقاصف عامرة . حتى إذا قدم سفير على الملك ازدحم الناس فى الشوارع ، وتسابقت حسان القصر إلى الاروقة ليروا كيف يسير ويجلس ويشرب ويأكل ؟ ثم يسعوا إليه فى داره للتحدث معه وشرب قهوته . وكانت الحسان أكثر الناس أخذاً بجاه السفراء وإسراعاً إليهم وإفادة من سخائهم : فعرض سليمان سفير تركيا على إحداهن التسرى على الطريقة التركية . ولما لم تكن هذه العادة معروفة فى فرنسا فقد تحظاها حتى مغادرته باريس . وعلق رضا بك سفير فارس غيرها فأسلمت وتزوجها ورزقت منه وليداً .

وذاعت أنباء سفراء الشرق فى بلاط فرنسا وأسرارهم ومغامراتهم ، فعمد الأدباء إلى تسجيلها والنسج حولها والنظم فيها ، ومما قاله الشاعر رونيه : هلموا كباراً وصغاراً انظروا سفير دولة بنى عثمان ؛ فقد وصل من تركيا وجاءنا من بلاد العرب بالنوادر والطرائف ! ولم يكن الشاعر مبالغاً فى قوله ؛ فإن سليمان القانونى كان يبعث إلى ملوك أوربا بهدايا لم يعرفوا لها شبيهاً ؛ كالجوخ والدمقس والأرجوان والملابس الموشاة بالذهب وضروب من الطيب يتطيب الأمراء بها ؛ ليدفعوا عنهم نتن المجدفين[٣٣] .

وأقبل الأدباء على الشرق بأديانه وأبطاله وقصصه ، فجعلوها غذاء للمسرح الفرنسى قرناً

---

(٣٣) A—Bonard, Conferencia, Juillet 1935.

كاملاً ، وتأثر به كبارهم من القرن السابع عشر حتى القرن التاسع عشر ، ومن لم يكتب فيه عِيبَ عليه تفاعسه فعل فولتير ببوسييه .

فهل اقتصرت الثقافة الإسلامية على أوربا ؟

١٠ – إلى الهند :

ولما كان الدين هو لب الحياة الدينية فى الهند – فقد عنى الرهبان البوذيون بالعلوم التى تعاون عليه ، فازدهرت فى الجزء الغربى من الهند وعلى إثر غزوة الإسكندر العمارة الفارسية والنحت اليونانى ، وقامت – بفضل نزوح جموع من السوريين واليونان والعراقيين فى القرنين الأول والثانى للميلاد – ثقافة يونانية بكترية طول ثلاثمائة عام اشتملت على : علم الفلك لتحديد أيام الأعياد والقرابين ، وعلم الرياضيات لحساب عمليات الفلك المعقدة ؛ فكانت الأعداد والنظام العشرى والصفر ، ثم تلتها علوم الكيمياء والطب ، ومتعدد الصناعات من مختلف المعادن .

وأسهم العرب الذين نزلوا بمليبار ونشروا الإسلام بين أهلها – فى شتى مرافق حياتها ، فروجوا تداول النقود العربية إلى جانب النقود اليونانية والصينية والتونسية والفارسية ، واخترعوا حروفاً خاصة لنطق بعض الألفاظ الدينية نطقاً صحيحاً منها : الرحمن ، والقرآن ، ومحمد ، والصلاة ، والصوم . . . إذ خلت اللغة المليبارية من حروف : ح ، ص ، ف إلخ . . . خلو العربية من بعض الحروف المليبارية ؛ وأدخلوا مفردات عربية وافرة فى اللغة المليبارية : كمنسب – المنصف ، وكرار – القرار ، وجكتان – الشيطان ، وكستى – القسط ، ورسيد – الرصيد . وقد اعترف الدستور الهندى بأربع عشرة لغة هندية محلية إحداها المليبارية .

واحتفظوا بالعربية لغة بينهم ومن أغانيهم الشعبية فى الزواج :

الله حسبى ، وهو نعم الوكيل الله

آمنة الزهرية أم خير عروس محمد

وأخرى ومطلعها :

طه طه طه رسول الله سموات بعلاها

فاه فاه فاه يوحى الله شافعنا محمد

واعتز الهنود بورود بعض مفردات لغتهم فى القرآن الكريم – كمسك ، وكافور ،

وزنجبيل – وقد ترجم القرآن إلى السندية عبد الله بن عمر العراق بأمر راجا مهروك ، ثم ترجم إلى الأردية فى القرن التاسع عشر – وباستخدام اللغة العربية الكلمات الهندية الدالة على الأحجار الكريمة والمعادن والأفاوية والعقاقير والأصباغ والحيوان والطير ؛ كما دخلت كلمات عربية اللغات الهندية منها : صابون ، وجلد ، وقيص ، وحكيم ، وطلاق ، وولدان .

ولئن لم يكن فاتحو الهند عرباً لقد دخلوا فى الإسلام ، واقتبسوا منه حضارته وشجعوا على مزجها بثقافتها ، فاشتهر فى بلاط محمود الغزنوى : الفردوسى الذى أهدى له الشاهنامة . ولما لم يجزل عطاءه – وكان الغزنوى سنيًّا يؤثر العربية على الفارسية – هجاه وفر إلى بغداد ؛ والعتبى ، والبيرونى ؛ وقرب أكبر المؤرخين وأغدق على الشعراء وجعل الفارسية لغة بلاطه ، وأمر المترجمين فنقلوا إليها روائع الثقافة الهندية ، ورعى الموسيقى فاصطنعها المتصوفون فى حلقاتهم ، وأطلقوا على آلاتها أسماء فارسية ، مثل : الرباب والسارود والطوس ، وغيرها .

وشجع خلفاؤه الرسم والنحت ، فتطور الرسم فى زمن جهان كير من الأشخاص إلى الطبيعة مناظرَ وحيواناً وطيراً ، واشتمل على تزيين الكتب السنسكريتية والفارسية والأردية والعربية ؛ واستدعى شاه جهان أساتذة النحت الإيطاليين لتعليم الهنود تطعيم المرمر بفسيفساء من الأحجار الكريمة .

أما التعليم فقد كان جله مدعاة للزينة والوجاهة ، ومما كتبه السلطان أورنجزيب إلى أستاذه فى العربية قوله : كنت تتكبّ على تعليمى اللغة العربية قراءة وكتابة . والحق أنى شاكر لك ما سببته لى من مضيعة لوقتى فى لغة تتطلب اثنى عشر عاماً لكى يجيدها الطالب .

على أن رعاية هؤلاء السلاطين لفن العمارة لم يفقها رعاية ؛ فقد مزجوا بين التزيين الهندى والفارسى والشكل العربى وعهدوا بها إلى كبار المهندسين العالميين ، وجاءوا بمهرة الصناع من بغداد والآستانة وبلاد الشام ، فأقاموا فى الهند مساجد وقصوراً لا مثيل لها فى الشرق والغرب ، وأضرحة وحصوناً فريدة فى نوعها ، أشهرها : منار قطب ، وضريح همايون ، ومسجد الجمعة ، ومسجد اللؤلؤة ، ومجموعات القصور التى شادها شاه جهان ، وفى أحدها عرش الطاووس الشهير . ثم القبر الذى شيده شاه جهان لزوجته ممتاز محل . وقد وضع تصميمه ثلاثة من المهندسين : أستاذ عيسى الفارسى ، وجيرونيمو فيرونيو الإيطالى ، وأوستن دى بوردو الفرنسى وأطلق عليه تاج محل .

وانحصرت الكتب فى المعاهد الإسلامية من القرن الحادى عشر إلى أوائل الثالث عشر للميلاد فى : الكشاف للزمخشرى ، وعوارف المعارف للسهروردى ، ومقامات الحريرى ،

وشاهنامة الفردوسى ، والقانون لابن سينا ؛ ثم اتسعت فى نهاية القرن الرابع عشر لكتب : النحو والأدب والمنطق والتفسير والحديث والفقه والتصوف والطب .

ونشر الهنود : شرح القرآن للفيضى ، وآخر لعبد الحكيم ، وسلم العلوم لمحب الله ، والفتاوى للشيخ نظام ، وتحفة المجاهدين لزين الدين ، والجواهر لمحمد غوث .

وصنف شاه ولى الله كتاب حجة الله البالغة ، فعد من أمهات الكتب فى الفلسفة الإسلامية . وألف إقبال بالإنجليزية تحديد التفكير الدينى فى الإسلام ، فبلغ به مبلغ إحياء العلوم للغزالى ، وحجة الله البالغة لشاه ولى الله .

وبلغت المدارس الإسلامية فى الهند – خلا مدارس المساجد والزوايا ، وكراسى اللغة العربية والثقافة الإسلامية التى سيفصلها الفصل الخاص بالاستشراق الإنجليزى – ١١٨ مدرسة . ومن أشهر مراكز التعليم الإسلامى :

دار العلوم (١٨٧٠) وفى مكتبتها ١٠٠ ألف كتاب عربى وفارسى وأردى خلا مخطوطات القرآن النادرة ، وقد كتب أحدها فى القرن الأول الهجرى ، ويقوم أساتذتها بترجمة المؤلفات العربية والفارسية إلى الأردية .

جامعة عليجرة (مدرسة ١٨٧٥ ، ثم تحولت إلى جامعة ١٨٨١) ، وتجمع بين المسلمين والهندوس ، وتسهم الحكومة فى ميزانيتها .

مظاهر العلوم (أواخر القرن التاسع عشر) تعنى بالشريعة ، وتضم مكتبتها مجموعة نفيسة من الكتب العربية والفارسية والمخطوطات النادرة .

الجامعة الملية الإسلامية ، والتعليم فيها بالأردية .

ندوة العلماء فى لكنهو ، وهى مدرسة للعلوم الدينية والتاريخ باللغات المختلفة .

الجامعة العثمانية (١٩١٨) وقد ضمت إليها دائرة المعارف العثمانية (المؤلفة عام ١٨٨٨) بفضل ريع وقف عليها ومنح الحكومة على يد نفر من العلماء بينهم المستشرقون ، لإحياء تراث الشرق باقتناء أمهات مصنفاته وتحقيقها ونشرها ، فجمعت عدداً وافراً من المخطوطات النادرة والأفلام المصغرة والترجمات الدقيقة فى مكتبات أوربا وروسيا وإيران وتركيا والبلدان العربية والهند . وقد نشرت ، خلال سبعين سنة ١٧٠ كتاباً تؤلف فى مجموعها ٣٧٠ مجلداً منها : المنتظم لابن الجوزى (٦ مجلدات) ، ومفتاح السعادة لطاشى كوبر زاده (٣ مجلدات) ، وكتاب المعانى الكبير لابن قتيبة (٣ مجلدات) ، وجمهرة اللغة لابن دريد (٤ مجلدات) ، وكتاب المعتبر لابن ملكة البغدادى (٣ مجلدات) ، ومعرفة علوم الحديث للحاكم

النيسابورى ، وإعراب ثلاثين سورة من القرآن لابن خالويه ، والسنن الكبرى للبيهقى (١٠ مجلدات) ، وكنز العمال لعلى المتقى (١٦ مجلداً) ، وتهذيب التهذيب لابن حجر العسقلانى (١٢ مجلداً) ، والجرح والتعديل لابن أبى حاتم الرازى (٩ مجلدات) ، والتاريخ الكبير للإمام البخارى (٨ مجلدات) ، ورسائل ابن عربى (مجلدان) ، ورسائل الفارابى وابن سينا وابن رشد وابن سنان وابن الهيثم وأبى نصر العراق أستاذ البيرونى ؛ والأزمنة والأمكنة للمرزوقى ، وميزان الحكمة للخازن ؛ وتذكرة السامع لابن جماعة ، وتنقيح المناظر لكمال الدين الفارسى ، ومختارات فى الطب (٤ مجلدات) ، وكتاب العمدة لابن القف (مجلدان) ، والجماهر فى معرفة الجواهر للبيرونى . ومن أحدث مطبوعاتها : صور الكواكب لبطليموس الإسكندرى ، بتحقيق أبى الحسين عبد الرحمن الصوفى ، وقد نشر لأول مرة من المخطوطات الملكية للأمير الفلكى أولوغ بيك بعد مضى عشرة قرون على وضعه ، والقانون المسعودى للبيرونى ، وقد ظل مخطوطاً طوال عشرة قرون . وكان الرياضيون الهنود والأوربيون يتمنون نشره ، ولا سيما بعد أن نشر زخاو كتاب البيرونى : الآثار الباقية فى القرون الخالية ، فنشرته الدائرة بعد أن أضافت إليه المجلدين الأول والثالث المكتشفين حديثاً وهما يضمان ثمانى مقالات . وكتاب الحاوى الكبير فى الطب للرازى ، وكان مخطوطه الأصلى نادراً فاشتهر بترجمته إلى اللاتينية حتى وفقت الدائرة إلى فيلم مصغر للمخطوط من كنيسة القديس لورنزو التابعة لها مكتبة الأسكوريال فى إسبانيا ، فحققته وقارنته بالمخطوطات الأخرى ، وباشرت نشره فى عدة مجلدات اشتمل الأول على أمراض الرأس والعينين ؛ كما نشرت الجزء الثانى من كتاب مرآة الزمان لسبط ابن الجوزى ، وذيله لقطب الدين اليونينى البعلبكى ، وهو يعالج التاريخ الأوربى وفترة ما بعد الحروب الصليبية (٤ مجلدات) .

مجلس الهند للروابط الثقافية بالعربية :

أسس مكتبة تضم ثمانية آلاف كتاب ، وأصدر (ثقافة الهند) وهى مجلة بالعربية تصدر أربع مرات فى السنة (منذ ١٩٥٠) بدلهى الجديدة ، واشترى حقوق الطبع لترجمات ستة كتب من عيون الأدب الهندى نقلها إلى العربية الشاعر وديع البستانى اللبنانى .

فإذا عدنا من الهند إلى الغرب حق لنا أن نسأل عما قدمه ليرد للشرق يده عنده فى نهضته ؟

١١ – النهضة العربية :

(ا) كان نصارى لبنان قد عرفوا الغرب قبل الحملة الصليبية الأولى بأربعمائة سنة[٣٤] ، ثم اتصلوا بملوكه وأسفروا إلى فرساى ، وعلموا وترجموا وحققوا فى : إيطاليا وإسبانيا والنمسا وروسيا وغيرها ، ولا سيما فى رومة مقر الفاتيكان .

وكما كان الفاتيكان أول من أرسى النهضة الأوربية على الثقافة العربية ووفد أتباعه – الذين عرفوا بالكاثوليك تمييزاً لهم من الأرثوذكس ، والبروتستانت – على الشرق العربى (١٢١٩) فقد كانوا أول من أدخل التراث الأوربى إليه لإرساء النهضة العربية عليه ، عن طريق مدارسهم ومطابعهم وصحفهم وجامعاتهم ومكتباتهم ومستشفياتهم وجمعياتهم . .

وكان لذلك النشاط رد فعل لدى الأرثوذكس ، فرحل البطريرك مكاريوس الحلبى إلى القسطنطينية وبلغاريا وروسيا (١٦٥٣) ، وقد ترجم رحلته من العربية إلى الإنجليزية بلفور فى مجلدين (لندن ١٨٣٤) وإلى الروسية اللواء جرجس مرقص الدمشقى (١٨٨٩) ثم أجمع الأرثوذكس العرب على انتخاب البطريرك دومانى العربى خلفاً للبطريرك اليونانى المتوفى (١٨٩٩) ، فتعربت الكنائس الأرثوذكسية فى أنطاكية وتوابعها وأيدتها روسيا القيصرية ، وطفقت تنشئ المدارس العربية فى الشرق الأدنى ، وخصصت مدرستى القاهرة وبيت جالا بتخريج المعلمين والمعلمات .

ولما وفدت الإرسالية البروتستانية على الشرق العربى استعانت بالمدارس لنشر مذهبها بين الكاثوليك والأرثوذكس العرب والأرمن ، فحرم البطريرك الماروني معاملتها ، ولجأ بطريرك الأرمن إلى الباب العالى فى شأنها ، حتى إذا أصبحت طائفة وطنية نافست فى إنشاء المدارس . ومما يروى عن فانديك رئيس الرسالة الأمريكية قوله : إنى سأنشئ مدرستين فى تلك القرية ، فلما قيل له – إنها لا تتحملها لصغرها – أجاب : سأكتفى بواحدة ، ولكن اليسوعيين سيلحقون بى لإنشاء الأخرى ؛ فشيدت فى بيروت أول مدرسة للبنات فى الإمبراطورية العثمانية (١٨٣٠) ومطبعة (١٨٣٤) والكلية السورية الإنجيلية (١٨٨٦) وقد تحولت فيما بعد إلى الجامعة الأمريكية ، ومكنت لها بالمكتبات والمستشفيات والجمعيات والمجلات .

ولحقت البعثة العلمانية التى فصلت الدين عن الدولة فى بلادها – بالغربيين إلى الشرق العربى ، وزاحمت طوائفه بمدارسها .

---

(٣٤) Ristelhuebert, Traditions françaises au Liban, p 7.

ومما انجلى عنه نشاط الكاثوليك والأرثوذكس والبروستانت والعلمانيين – تعريب مذاهب الغرب وفنونه وآدابه وعلومه بلسان عربى مبين ، وقد استعانوا فيها بعلماء من العرب . والعناية بالعربية لغة وأدباً ، ومن هنا وجدت اللغة العربية موئلاً لها فى المدارس الأجنبية والمدارس المسيحية الطائفية ، فانتشر تعليم الأدب العربى بين المسيحيين أكثر من انتشاره بين المسلمين[٣٥] ، وإصدار خليل الخورى أول صحيفة عربية باسم حديقة الأخبار ، ونهوض بطرس البستانى بأول دائرة معارف عربية (١٨٧٦) ، وقيام نهضة عربية فى الفن والأدب والعلم والسياسة يطالب أصحابها بإصلاح شامل فى الإمبراطورية العثمانية أو الانفصال عنها بتكوين دولة عربية مستقلة .

(ب) وكانت حملة نابليون (١٧٩٨ – ١٨٠١) أولى الحملات الغربية على مصر فى تاريخها الحديث مجهزة ببعثة علمية قوامها علماء أعلام فى كل ضرب من ضروب ثقافة ذلك العصر ، منها : الأثريون والمهندسون والأطباء والمؤرخون والمستشرقون والمترجمون اللبنانيون والمصريون والسوريون من أمثال : ميخائيل صباغ (١٧٨٠ – ١٨١٦) الذى اتصل بالمستشرقين : دى ساسى ، وكاترمير وعمل فى المكتبة الوطنية بباريس ، وصنف مسابقة البرق والغمام فى سعاة الحمام ، والرسالة التامة فى كلام العامة (نشرها توربيكه ، جوتنجن ١٨٦٦) . وإلياس بقطر من مصر (١٧٤٨ – ١٨٢١) أستاذ العربية فى مدرسة اللغات الشرقية بباريس ومصنف المعجم العربى الفرنسى (حققه وزاد عليه أرمان كوسن دى برسفال ، باريس ١٨٢٩) ونقولا الترك (١٧٦٣ – ١٨٢٨) صاحب : حرب بونابرت مع النمسا (باريس ١٨٠٧) وتملك جمهور الفرنساوية (نشر نصفه الأول – إيمى دى جرانج ، متناً وترجمة ، باريس ١٨٣٩) وتاريخ أحمد باشا الجزار (مخطوط) وديوان شعر ، وحوادث الزمان فى جبل لبنان (مخطوط) . وروفائيل زخور (١٧٥٧ – ١٨٣١) المولود فى القاهرة من أصل حلبى ، وقد علم العربية فى باريس ، ثم جعله محمد على مديراً لمطبعة بولاق ، فمترجماً فى مدرسة الطب ، وكان العضو الشرقى الوحيد فى المجمع العلمى المصرى ، وترجم الكثير من الفرنسية والإيطالية بينها : قانون الصباغة فى صناعة الحرير للمالبرور ، وقد أمر نابليون بتأليف المجمع العلمى المصرى ، وتأسيس مطبعة عربية – كان قد استصفاها من الفاتيكان – لطبع تصريحاته وبلاغاته ومنشوراته ، وإصدار ثلاث صحف واحدة منها بالعربية ، وإنشاء مكتبة

---

(٣٥) ساطع الحصرى ، البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص٨٣ .

ومتحف ومختبر (معمل) ومصنع ومرصد ومسرح ، ويسر للجميع الإطلاع عليها والإفادة منها .

ونشرت بعثته بحوث علمائها ورسومهم وخرائطهم فى كتاب : وصف مصر (١٨٠٩ – ١٣) ثم حل شمبوليون رموز الكتابة الهيروغليفية بقراءته حجر رشيد (١٨٢٢) ، وألف لها أجروميه ومعجماً (١٨٣٢) ، فوضع أساس علم الآثار المصرية ، ومهد السبيل إلى العلماء للتنقيب عن عالم عظيم مفقود[٣٦] .

ولم يقتصر أثر تلك البعثة على حملة نابليون ، بل تجاوزها إلى العصور التى تلتها والدول التى تشبهت بها .

فكانت آخر الحلقات التى تلاقى فيها الشرق والغرب لقاء سيف ودينار واستعمار ! وكانت البعثات خاتمة الحلقات التى اتصل منها الشرق بالغرب فى الفنون والآداب والعلوم ، فوفى الغرب بدينه الثقافى للشرق ، أما التراث العربى فى الغرب فقد فصلناه فى واحد وعشرين فصلاً تفصيلاً تناول ما استوعبه من : كراس ومكتبات ومتاحف ومطابع وجمعيات ومجلات ومجموعات ومؤتمرات وغيرها ، مع تراجم المستشرقين وتدوين آثارهم عنه وفضلهم فيه .

---

(٣٦) الفصل الأول : مهد الحضارة .